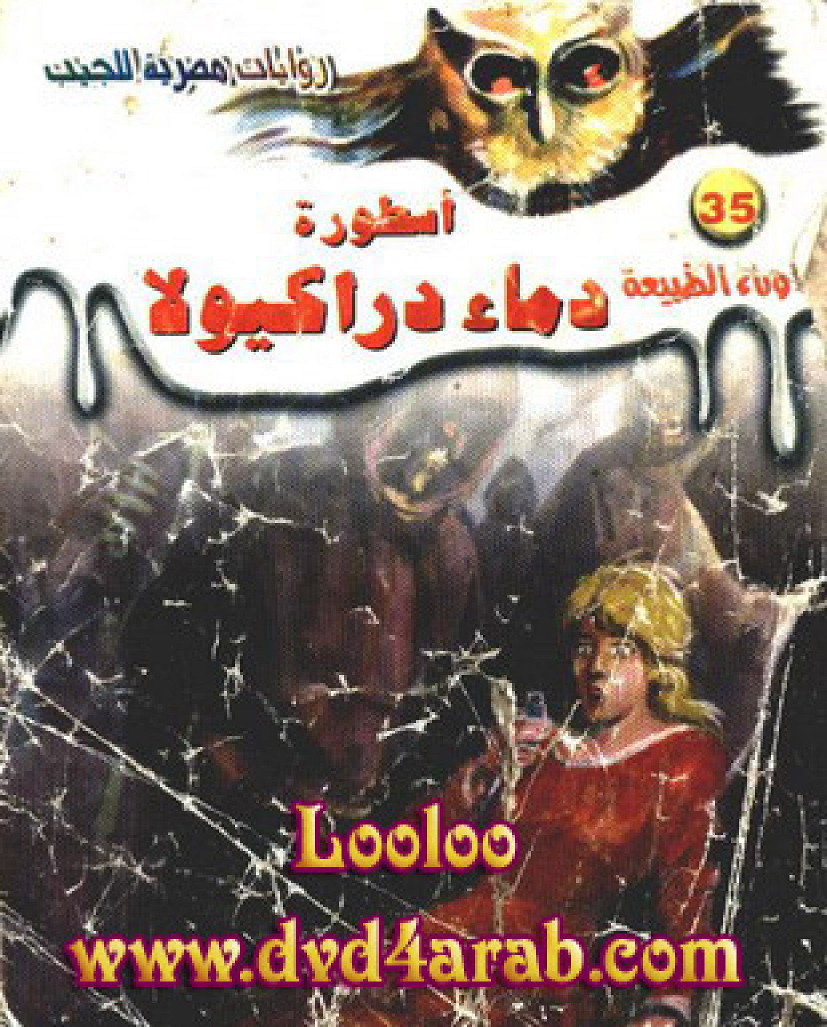

روايات مصرية للجيب
35
وراء الطبيعة
أسطورة
دماء دراكيولا
Looloo
www.dvd4arab.com

حكاية الشاحب الثالث

يحكيها هو بنفسه

قال (كوثار) :

ـ أنا من ضمّ (بيلاسكو) مدرس القرية .. وأبى إلى إخوة الدم ..

★ ★ ★

لا بد أن من قرءوا مذكرات أبى قد عرفوا كيف كان الأمر .. لقد جاء إلى غرفتى المظلمة ليلاً يبغى أن يعرف مشاكلى ، وسر ميلى إلى الوحدة وقلة نظافتى ..

لكن نداء (هو) كان أقوى منى ، ونجحت فى جعل (بيلاسكو) يشرب جرعات عدة من الإكسير .. وكانت ملاحظته قوية حقًا ، جديرة بمدرس علوم عتيد .. إنه سائل عطر الرائحة ، له مذاق (الزنجبيل) لو خلط بشىء من النعناع ..

وسرعان ما تم الأمر .. لقد جعله الإكسير قادرًا على تحمل امتصاص دمه .. وأفرغت ما بعروقه ، ثم قلت له العبارة العتيدة :

ـ « أنت لن تموت .. ستعيش لتكون من إخوة الدم ، وعندها تلفظ كل خطايا الماضى .. »

★ ★ ★

أما من ضمتنى أنا فـ (فيروزة) الحسناء ..

(فيروزة بالكوفسكو) .. اسم عربى جميل ، ربما يرجع إلى عهد الأتراك فى (رومانيا) .. فلقد ترك لنا الأتراك أثرًا لا يمحى ها هنا ..

كانت (فيروزة) فيروزة حقيقية تمشى على قدمين .. ذلك الجمال الصارخ الذى يُشعر الرجال بالهمّ والأسى .. ذلك الحسن الذى كفت النساء منذ دهر عن حسده ، وصرن يعتبرنه حقيقة لا مفر منها كالشمس ..

(فيروزة) ابنة (أندريا بالكوفسكو) العجوز الفظ .. الفلاح الخشن ، الذى يؤمن بأن المرأة يجب أن تضرب على الدوام ، فإن لم تفعل ما تستحق عليه الضرب فهى - حتمًا - فاعلته ..

لهذا كان يوسع نساء الدار ضربًا .. امرأته وابنتيه .. يحدث بهن كدمات لا بأس بها حول العيون وفى الشفاه ، ثم كان يهدأ فيبدأ الحديث عن الشيوعيين الذين جعلوا الحياة لا تطاق ..

- « يقولون إن الأمور تزدهر .. بحق السماء أنا أعرف شيئًا واحدًا .. لقد صار الرزق أضيق ، وغدت الحياة أعسر .. مع فارق واحد ، هو أن المرء لا يحق له أن يعلن ذلك .. »

وتعود له الثورة ، فينهض ليوسع المرأة البائسة زوجته ضربًا .. ويعتصر ذراع (فيروزة) بين إبهامه وسبابته قائلاً :

- « أنت ستكونين امرأة حسناء .. والمرأة الحسناء لا تجلب سوى المصائب لأهلها ولنفسها .. كيف لى أن أطمئن لحظة لخروجك إلى الغابة لجمع التوت ؟ أو لعودتك إلى الدار فى ساعة متأخرة ؟ »

ويضربها بعنف وهو يكاد يجن غيظًا :

- « حتى لو لم تكونى شيطانة .. فهناك من الشياطين عدد كاف دائمًا .. »

وتصرخ الفتاة وتولول ، وتهرع جريًا من الدار ..

يقول له الجيران أن يترفق ..

فيقول لهم فى فظاظة : إن هذا ليس من شأنهم .. فلينعموا برزقهم الوافر ، وليطمئنوا على نسائهم وبناتهم القبيحات .. أما هو فلن ينام أو يهدأ حتى تصيبه أزمة قلبية ، ويموت والزبد على شفتيه ككلب عقور ..

* * *

كانت (فيروزة) هى فتاتى .

وكان جميع شباب القرية يعرف هذا .. وبرغم

ضآلة بنيتى فإننى كنت قادرًا على جندلة من يتهكم أو يتخرص أو يلمز فيما يتعلق بها .. وكنت أثب إلى صدره قبل أن يفهم ما يحدث ، لأمرغه فى الغبار وأشبعه ركلاً وعضًا ولكمًا ..

وبعد هذا كنت ألقاها عند الخميلة ، لتمسح بيدها الباردة الرقيقة على كدماتي وتقول :

- « رباه ! قد آذوك حقًا يا صغيرى المسكين .. »
- « لكنى آذيتهم أكثر .. »

وكانت لقاءاتنا سرية يشوبها توتر شديد .. فلو رآنا أحد الحاقدين لجرى وأخبر أباها .. عندها لن يتردد (بالكوفسكو) العجوز فى أن يجلب بندقيته (القرابينة) من الجرن ليفرغها فى رأسى ورأس ابنته .

لم يحدث بيننا ما يشين أو ما أخجل من ذكره .. لكن أباها ما كان لينتظر حتى أقسم .. وأنا لا ألومه كثيرًا على كل حال ..

كان حبنا خطرًا داهمًا .. وكانت الأيام ضدنا لأننى - حتمًا - لا أستطيع أن أتزوجها فى سن مبكرة كهذه .. وما كان القس ليسمح لى بأن آخذها معى إلى كنيسته

لنتزوج سرًا ، كما فعل (روميو) و(جولييت) فى تلك الرواية التى فى مكتبة أبى ..

فى الآونة الأخيرة لم تعد (فيروزة) تأتى للقائى فى الخميلة ..

وأدركت أن حصار أبيها عليها يضيق .. ورحت أفكر فى كيفية لقائها .. لكنى لم أبلغ بعد بشجاعتى درجة أن أتسلل إلى دارها .. فالخطر حقيقى لا شك فيه ، وليس به شىء من الرومانسية ..

إن ما حدث لـ (روميو) و(جولييت) رومانسى .. لكن لمن يقرأ قصتهما فى فراشه ليلاً ، وليس بالنسبة لهما بالتأكيد ..

ترى كيف أنقذك وأنقذ نفسى يا (فيروزة) ؟

* * *

وكان الجواب دانيًا جدًا ..

فى ذلك المساء كنت عائدًا إلى دارى مطرق الرأس مهمومًا ، حين رأيت شبح فتاة يدنو منى ..

دنت فتعرفتها .. إنها (ياسمينة) أخت (فيروزة) التى تصغرها بأعوام أربعة .. كانت ممتقعة .. حتى فى الظلام استطعت أن أرى ذلك ..

طفلة مذعورة تتسلل تحت جناح الليل لتقول لى :

- « (فيروزة) ليست على ما يرام .. »

- « أحقًا ؟ لماذا لا أجد فى نفسى دهشة ؟ »

اتسعت عيناها الزرقاوان أكثر .. وهمست :

- « الأمر ليس كما تظن .. لا علاقة لهذا بأبى .. إنها منزوية فى حجرتها ، وحيدة لا تكلم أحدًا ، ولا تترك أحدًا يكلمها .. تعاف الطعام ، وتوشك أن تتحول إلى شبح .. »

وارتجف صوتها وهى تقول :

- « إن أمى مذعورة .. »

كدت أذوب قلقًا .. لكنى كنت قادرًا على بعض التفكير السديد .. ما هو دورى أنا فى كل هذا وما ذنبى ؟ »

قالت وقد رأت السؤال فى عينىّ :

- « تقول أمى إنه الحبّ .. إن حبها لك سيقتلها قتلاً .. أمى تعرف هذه الأشياء .. وتقول : ربما لو رأتك (فيروزة) لحظة .. فلربما ...... »

هذه هى الكارثة .. لو رفضت لكنت نذلاً .. ولو قبلت لكنت مجنونًا ..

إن العجوز (بالكوفسكو) لن يعطينى ترف الموت بالرصاص هذه المرة .. سوف يعطينى درسًا عمليًا فى كيفية سلخ الخراف ..

لكنى شاب .. والشاب لا يملك خيارين لأمور كهذه ..

- « إننى أقبل .. ولكن المكان ؟ »

- « ستلقاك (فيروزة) عند الطاحونة القديمة .. سنعرف كيف نقنعها بهذا .. وعليك أن تكذب عليها .. قل لها إنك تحبها .. »

- « وهل يكذب المرء فى شىء كهذا ؟ »

- « .. وقل لها إنكما ستتزوجان يومًا ما .. »

- « أما هذا فكذب صريح .. لكنى سأفعله .. »

تلفتت حولها فى رعب .. ثم قالت وهى تذوب فى الظلام :

- « شكرًا يا (كوثار) .. الطاحونة القديمة غدًا بعد الغروب .. وداعًا ! »

★ ★ ★

لهذا يا رفاق تروننى واقفًا فى الظلام ، أصغى لصوت حشرات الليل المنتظم ، وأرتجف .. أرتجف انفعالاً وأرتجف بردًا ..

يا لحرارة دماء الشباب ! يا لاندفاعهم ! قل للواحد منهم إن حبيبته تحتاج إلى التهام عينيه كي تعيش .. عندها يخرج لك عينيه دون تفكير ، وفى أريحية يعتبرها الكبار حماقة ، ويعتبرها الشاب فروسية ..

لماذا أتحدث عن الشباب كأنى لست منهم ؟

الإجابة بسيطة : لأننى لم أعد منهم ..

ولكن .. هى ذى (فيروزة) قادمة فى الظلام تجرّ ساقًا وراء ساق ، محنية القامة مترنحة ، لكنها هى ..

دنوت منها فاتحًا ذراعىّ ؛ لكنها ظلت متصلبة متخشبة ، لم تبد أدنى حرارة كالتى أظهرتها أنا .. تراجعتُ للوراء وتأملتها ..

الحق أننى لم أر شحوبًا كهذا إلا فى أوراق الشجر الذابلة .. واقشعر جلدى لمرآها .. لم يكن الأمر متعلقًا بلوعة الهوى إذن .. الفتاة مريضة .. مريضة للغاية ..

- « (فيروزة) ! حبيبتى ! يجب أن يراك العجوز (ميخائيل) .. لربما .. »

فتحت شفتيها المتشققتين .. وهمست :

- « لم يعد بوسعه أن يفعل الكثير .. أنت وحدك تستطيع .. »

- « سأفعل حتمًا .. لكن أفعل ماذا ؟ »

- « سأموت خلال أيام ما لم .. ما لم ..... »

وارتجفت ودمعت عيناها ..

هنا جنّ جنونى .. وأقسمت : لو أنها سألتنى أن أسافر إلى (تمبكتو) الآن .. أو أذهب حافى القدمين إلى القطب الشمالى .. أو أصطاد لها (كنجارو) حالا ، فلسوف أفعل ..

قالت وهى تخرج قنينة من جيبها :

- « هذه القنينة .. إنها من تركيب الصيدلى .. هل .. هل تذكر (روميو) و(جولييت) ؟ لقد كنت أقرأ المسرحية أمس .. »

- « هذا هو ما كنت أفعله بالذات .. هل تعنين الانتحار ؟ »

- « بل النوم الذى يبدو كالانتحار .. ثم نصحو منه فى الكنيسة فى أثناء القداس ، لنطلب أن يزوجونا وإلا متنا بحق .. »

بدت لى الفكرة لا بأس بها .. بعد ما يولول آباؤنا وبعد ما يلوم أبوها نفسه ألف مرة ، نصحو من سباتنا ونطلب .. نطلب عندما يغدو الجميع على استعداد للتنفيذ .. نطلب الزواج طبعًا ..

- « هل هو دواء منوّم ؟ »

- « يقول الصيدلى إن مفعوله مضمون تمامًا .. ويكفى للنوم يومًا كاملا .. »

- « وشربت منه ؟ »

- « بعدك يا (كوثار) .. بعدك ...... »

تناولت القنينة .. ورفعتها إلى فمى ..

يبدو الأمر مرعبًا .. ماذا لو كان هناك خطأ ما ؟ ماذا لو كان الدواء لا يجعلنا (نبدو) موتى .. بل هو (يجعلنا) موتى ؟

سيان عندى .. فعينا (فيروزة) الصافيتان المناشدتان تقولان لى ألا مجال للرفض واختلاق الأعذار ..

وجرعت جرعة طويلة حاولت ألا أتذوقها لكنى فشلت ..

زنجبيل مخلوط بالنعناع ! عبقرى حقًا يا أبى .. وصفت بدقة المذاق الذى أجهدت ذهنى باحثًا عن طريقة لوصفه ..

- « كيف مذاقه ؟ »

- « لا بأس .. عطرى نوعًا .. والآن دور ...... »

هنا كانت (فيروزة) قد أنشبت أسنانها فى ذراعى !

ولم أقاوم كثيرًا لأن الخدر كان يسرى فى دمى .. بل إن الأمر لم يكن سيئًا إلى الحدّ الذى يبدو به ..

* * *

هو - الذى يمشى فى الظلال - يريدك ......

* * *

ومن يومها صار اسمى الجديد هو .. الكابوس ..

* * *



هنا كانت (فيروزة) قد أنشبت أسنانها فى ذراعى !
ولم أقاوم كثيراً لأن الخدر كان يسرى فى دمى ..

حكاية الشاحبة الثانية

تحكيها هى نفسها

قالت (فيروزة) :

ـ يقولون إن اسمى جميل .. يقولون إن وجهى أجمل ..

يقولون إن حياتى سيئة .. يقولون إن مصيرى أسوأ ..

* * *

(فيروزة) و (ياسمينة) البنتان الجميلتان لـ (بالكوفسكو) .. أكثر فلاحى القرية فظاظة وخشونة ..

إن (بالكوفسكو) يعيش الحياة كأنها حرب مرهقة يجب التوتر والصراخ فيها لمن يريد أن يرى يومًا جديدًا .. ضغطه مرتفع .. توشك عيناه على الانفجار بالدم .. يوشك وريدا عنقه على النزف ..

لقد أقسم على أن يجعل كل ثانية من حياته معنا جحيمًا .. لا بد من الصراخ ولا بد من الركلات واللكمات .. يضرب زوجته لأسباب غريبة حقًا : لأن الشيوعيين أفسدوا الأمور فى (رومانيا) .. ولا تسأله عن ذنب المرأة المسكينة ، فهو يرى لها ذنبًا عظيمًا فى كل شىء ..

ويرى الشباب يرمقوننى بإعجاب ، فكان يطلق السباب ، ثم يقتادنى من شعرى إلى الدار ، وينهال علىَّ ضربًا بحذائه الثقيل ..

ـ « تبًا لك ! لو تُرك لى الأمر لحبستك فى برميل طيلة حياتك أو دفنتك فى المستنقع .. »

ويجىء القس ليزور دارنا حاملاً مبخرته ، فيقول له فى رصانة :

ـ « لا تقسُ على نسائك يا (بالكوفسكو) .. إن (فيروزة) حسناء لكنها على خلق قويم .. ولا ذنب لها فى جمالها .. »

فيقول وهو يحاول أن يبدو مهذبًا أمام القس :

ـ « لهذا أحاول أن أشوهه بالمزيد من اللكمات ! إن وجهًا متورمًا هو وجه أقل جذبًا للذباب .. »

فيرمقه القس مذهولاً باحثًا عن كلمات يقولها .. ثم يدعو له بالرشاد ويتركه ..

الحق أننى تعلمت منذ الطفولة أن أكره جمالى ، واعتبره لعنة تلاحقنى .. فأنا أظفر بكل عيوبه دون مزاياه ..

ولا بد أننى كنت فى أمس الحاجة إلى الحبّ حين عرفت (كوثار) ..

★ ★ ★

دعنا لا نخلط الأمور ببعضها ..

فأنا جميلة حقًا ، ويمكننى أن أروق لأى شاب فى قريتنا .. لكنه لن يحبنى ولن يتحمل تبعات هذا الحب وتضحياته ..

أما (كوثار) فكان يحبنى حقًا .. يحنو علىّ حقًا ..

لكننى كنت أخشى عليه نتائج علاقة شائكة كهذه ، مع مخلوقة أبعد ما تكون عن الاستقرار النفسى والعقلى .. مثلى ..

قال لى ذات مرة :

- « ثمة جريمة فى العالم المتقدّم اسمها جريمة (إيذاء الأطفال) أو (Child abuse) ، وبموجبها يمكن للدولة أن تنتزع طفلاً من أبويه اللذين يضربانه كثيرًا ، لتقوم بتربيته بشكل صحيح .. »

تنهدت فى حسرة وأنا أتحسس الكدمة على ركبتى ، وقلت :

- « .. لكن هذا - لو حدث فى العالم كله - لن يحدث فى (رومانيا) أبدًا .. »

وتعلمت الكثير من (كوثار) ..

كم من كتب جلبها لى من مكتبة أبيه - مدرس القرية - كى أغوص فيها ، وأسافر إلى عوالم نائية .. إلى (الأهرام) التى تلتمع فى ضوء الشمس على حين تغفو التماسيح فى النيل .. إلى شمس منتصف الليل .. إلى قطعان الجاموس البرى التى يطاردها الهنود الحمر فى وديان (كاليفورنيا) ..

إلى عوالم لا يركل فيها الناس بعضهم البعض بلا سبب ..

★ ★ ★

كانت (ناديا) صديقتى مريضة ..

تقول أمها إن ابنتها لم تعد راغبة فى مفارقة غرفتها ، ولم تعد تكلم أحدًا ، وكفت عن الاستحمام حتى غدت للغرفة رائحة القبور .

قالت لى أمها وهى تكاد تجنّ قلقًا :

- « (فيروزة) هلا فعلت شيئًا ؟ إنها تحبك بشكل خاصّ .. »

لم أجد ما أقول أو أفعل سوى أن أطلب منها أن تدخلنى إلى غرفتها .. ومن اللحظة الأولى شممت الرائحة التى ستغدو جزءًا من حياتنا منذ ذلك التاريخ ..

صاحت (ناديا) وهى متكومة فى الفراش :

ـ « أوصدى الباب يا حمقاء ! أوصدى الباب ! »

نهضت للباب ، وابتسمت للأم معتذرة ثم أوصدت الباب بالمزلاج لأجلس وحدى فى الضوء الخافت قرب (ناديا) ..

برغم الظلام شبه الدامس ، كان بوسعى أن أرى شحوبها الشديد .. شحوب هذه الورقة لا أقل .. وكان رأسها مضمدًا كأنما هو مجروح ..

وارتجف قلبى لأننى شعرت بأن الفتاة تموت .. بالتأكيد تموت .. ثمة أشياء تدعى (سرطان الدم) و(النزف الداخلى) و ... و ... وكلها تجعل المرء شاحبًا كهذه الورقة .. لكن من المستحيل أن يكون مرضها نفسيًا ..

قالت (ناديا) بعد ما تبسطت قليلاً :

ـ « إننى لم أعد أطيق الناس ولا النور .. »

ـ « هذا لأنك مريضة يا (ناديا) .. إن د.(ميخائيل) سوف ... »

ـ « لم يفعل شيئًا ! لقد كان هنا منذ يومين وكتب لى هذا الدواء .. لكنى لا أطيق رائحته .. »

ولوحت بقارورة صغيرة أمام عينى .. وتقلص فمها اشمئزازًا ..

قلت لها بحنان أم تفهم الأطفال جيدًا :

ـ « كل الأدوية الناجحة كريهة المذاق يا فتاة .. »

قالت فى عصبية وهى تناولنى القارورة :

ـ « جربى رشفة واحدة ، ولسوف أشيد لك تمثالاً ! »

كان علىّ أن أتشجع .. قربت القارورة من فمى وفتحتها .. كانت لها رائحة عطرية جعلت رأسى يدور ، لكنى تمالكت أعصابى ورشفت رشفة ثم رشفتين .. حقًا ليس كريهًا أبدًا ..

بعد هذا عرفت أننى فى الفراش ، وأن (ناديا) تنشب أسنانها فى ساقى تفعل شيئًا ما .. وسمعتها تلهث قائلة :

ـ « أنت لن تموتى .. ستعيشين لتكونى من إخوة الدم .. وعندها تلفظين كل خطايا الماضى ! »

★ ★ ★

بعد ساعة غادرت الغرفة مبلبلة الأفكار ..

كنت أعرف يقينًا أن (هو) ـ الذى يمشى فى الظلال ـ يريدنى .. لكن من (هو) ؟

وسألتنى الأم عن سرّ شحوبى ، وعن عرجى البسيط .. فقلت :

ـ « لا شىء يا سيدتى .. إن (ناديا) نائمة الآن لكنها بخير .. »

وحين خرجت إلى النور الساطع خارج الدار ، شعرت كأننى عارية وأن الشىء الوحيد الذى يجب أن أفعله هو أن أجد مكانًا رطبًا مظلمًا أتوارى فيه .. الشمس ! كيف يحبون هذا اللهب الحارق المسلط على الأرض ؟ كيف يتحملونها ؟

★ ★ ★

كانَ علىّ أن أصنع آخرين ..

وفكرت فى (بالكوفسكو) .. ثم رأيت أنه لا يستحق أن يغدو منّا ..

لهذا كان (كوثار) هو أول من فكّرت فيه ..

ناديت (ياسمينة) وأبلغتها رسالتى ..

والآن هأنذا أتحرك فى الظلام قاصدة الطاحونة القديمة ..

★ ★ ★

حكاية الشاحبة الأولى

أو

كيف بدأ الوباء ؟

تحكيها هى نفسها

قالت (ناديا) :

كنت أول من جلب (هو) إلى (هالماجيو) .. وإننى لفخور بذلك ..

* * *

منذ صباى كنت أهوى غرائب الأشياء ، وكان الكهف هناك دومًا ليذكرنى بأن فى قريتنا أشياء غامضة لم تتضح بعد .. فى قريتنا لم تعد هناك أسرار .. كل قلوب الشباب واضحة كالشمس .. كل أفكار الشيوخ جلية كالماء النقى .. أعرف ما يدور برأس القس ورأس البقال ورأس الشرطى الوحيد .. أعرف ما سيحدث بعد عام وبعد عامين على وجه التقريب .. الخلاصة أن شيئًا غامضًا واحدًا لم يبق فى قريتنا ..

لكن الكهف ...... !

* * *

وأغرب ما فى هذا الكهف أنه ـ على عكس الكهوف كلها ـ غير مغلف بالأسرار .. إنه البساطة ذاتها .. لم يختف أحد بداخله ، ولم يمت أحد على بابه ، ولم نسمع منه صراخًا رهيبًا فى الأمسيات المقمرة ..

وهذا فى حد ذاته يجعله فريدًا من نوعه .. الكهف الوحيد غير الغامض فى هذه الأرض !

لم يكن أحدنا يحبه ، ولم يكن الشباب يقصدونه ، لأن رائحته الكريهة كانت تجعل الشباب يفرون منه .. أحيانًا كان العشاق يدنون منه ليخطوا بالطبشور الحروف الأولى من أسمائهم (الحروف الأولى التى لا تسمح باستنتاج أسمائهم الكاملة) ، ويرسموا قلوبًا .. لكن هذا هو كل شىء ، لأن الرائحة الشيطانية لم تكن تسمح بما هو أكثر ..

وجاء اليوم الذى بلغت فيه السادسة عشرة من عمرى ، وأدركت أن الوقت قد حان كى أحتفل احتفالاً خاصًا فريدًا : لِمَ لا أدخل الكهف وحدى ؟

الشىء الذى لم يقم به شاب واحد من شباب القرية ، ولم يخطر لرجل واحد ها هنا .. أقوم به أنا الفتاة الواهنة الضامرة (ناديا هالماسكيا) .. أليس هذا عيد ميلاد من نوع فريد ؟

* * *

لن أنسى هذا اليوم ما حييت ..

كنت عائدة من المدرسة والوقت عصرًا ، والحرّ قد

جعل دروب القرية كلها خاوية تنبعث منها رائحة القيظ ، ورائحة أوراق الشجر الجافة التى أوشكت على الاحتراق ..

كنت أركب دراجتى ، لذا قررت أن أدور دورة أطول من المعتاد قرب الكهف فى النصف الشمالى من القرية .. ولم يكن هناك أحد ..

وقفت أرمق الكهف بعض الوقت .. كان الإغراء شديدًا ..

لست أدرى ما إذا كان محض خيال ، لكننى شعرت بالكهف العجوز ينادينى قائلاً : الآن أو لا للأبد ..

هبطت مترجلة وأرحت الدراجة على الأرض ، ثم دنوت ـ كذبابة تدنو من بيت العنكبوت ـ وأنا أفكر : هل من الحماقة أن ...... ؟

ثم كيف أدخل الكهف دون حبال ولا كشافات ؟ كلهم يفعلون هذا فى الروايات .. لكن من قال إننى سأتوغل ؟ فقط سأدخل إلى مسافة لم يدخلها أحد قبلى قط ..

كانت أول خطوة هى الأكثر عسرًا .. الخطوة التى جعلتنى أنحنى وأمر تحت الحبل .. الحاجز الساذج الذى وضعوه على سبيل الواجب ..

بعد هذا كانت أربع أو خمس خطوات كفيلة بأن تجعلنى فى الداخل .. ولم يكن ملكوت الظلام قد ساد بعد ، لكن ملكوت الرائحة كان قد أعلن مجده ! وسمعت حفيف أجنحة ..

إنها تلك الكائنات المقيتة : الوطاويط .. لكنها ستفر حتمًا .. فلم يصطدم أحدها بى ما لم يكن أصمّ ..

واصلت المشى بقدمين ثابتتين نوعًا فوق الثرى المبتلّ .. لا بد أننى مشيت فى الغبشة دقيقة لا أكثر .. لكنى كنت أشعر بأننى مشيت دهرًا ، وراح ذلك الجزء الجبان من عقلى يقول لى :

ـ « هلمى يا فتاة .. عودى ! لقد توغلت بما يكفى وبرهنت على شجاعتك .. والآن حان وقت التراجع .. حان وقت الفرار ! »

لكنى كنت آمره بالصمت ..

فيعود ليقول بعد ثوان بنفس الإلحاح :

ـ « أما زلت مصرّة ؟ أى نوع من الحمقى أنتِ ؟ »

فيقول له الجزء الشجاع من عقلى :

ـ « هلا خرست قليلاً ؟ إننى لم أر شيئًا بعد .. ثم إن التراجع سيجعلنى أشعر بالذعر .. سأشعر كأن هولاً يطاردنى .. »

كنت أدرك هذا الشعور تمامًا .. ما دمت أتقدم بجسارة سيظل الخوف نائيًا عنى .. الخطر كل الخطر هو لحظة التراجع ..

إننى أعرف ذلك المشهد الخالد فى أفلام الرسوم المتحركة ، التى تعرضها سينما القرية مساء الأحد : القط يخطو فوق الهاوية دون أن يلاحظ ذلك .. يمشى فى الهواء بضع خطوات ، ثم يتنبه إلى أن الأرض ليست تحت قدميه .. عندها فقط يسقط !

هكذا الأمر دائمًا .. الخطر لا يؤذينا إلا حين نعرف أنه خطر ..

* * *

(هو) - الذى يمشى فى الظلال - يصغى لأنفاسك الآن ..

* * *

من قال هذا ؟

توقفت وقد تصلب الشعر فى مؤخرة عنقى .. الحق أن ما سمعته لم يكن صوتًا بل كان فكرة .. فكرة أجنبية عنى لكنها وجدت مكانها فى ذهنى .. إن هذا غريب حقًا ..

فى هذه اللحظة لم أكن أرى شيئًا على الإطلاق .. لقد صار الظلام مطلقًا .. لهذا بحثت عن عود ثقاب فى جيبى .. أنا أحمل دائمًا مشط ثقاب ولا أدرى سبب هذه العادة ..

اشتعل عود الثقاب محدثًا الوهج الأوليّ الساطع .. ثم الضوء الخافت المتراقص المميز .. وعلى ضوئه أدركت أن الممر مسدود ..

* * *

(هو) - الذى يمشى فى الظلال - ينتظرك فى شغف منذ قرون ..

* * *

إنه الصوت مرة أخرى ..

لكن ما رأيته جعلنى أكثر اهتمامًا من كل ما أسمعه فى ذهنى ..

إن هذا المكان مقبرة !

لم تكن كأية مقبرة رأيتها ، أو تلك التى فى كنيسة القرية .. بل هى أقرب إلى جدران صخرية ، والجدران قد دفنت فيها هياكل عظمية كاملة .. لكن .....

لقد انطفأ العود بعد ما أحرق أناملى ..

* * *

عود ثقاب آخر .. من جديد أرى ما يدور حولى .. وفى هذه المرة بدأ الهلع يشلّ أفكارى ..

إن هذه الأجساد قد دفنت فى الجدران دفنًا .. ومن الأيدى العظمية الممدودة خارج الجدار يمكننى أن أقسم إن بعضهم قد دفن ها هنا حيًا فى أثناء البناء ! وكان هذا كافيًا كى يقهر أية شجاعة لى ..

هذا المكان دنس .. مكان يحمل علامة (خريولسن) نفسه .. إنه .....

لقد انطفأ العود الثانى ..

★ ★ ★

الهلع !

نظر القط إلى قدميه وأدرك أنه لا يمشى على أرض ثابتة .. لذا جن جنونه .. حرّك قدميه فى محاولة هستيرية للمشى .. ثم هوى !

أركض فى اتجاه المخرج عاجزة عن ترتيب أفكارى ..

يدى تحاول فى جنون إشعال عود ثقاب ثالث .. لكن هذه الأشياء لا تتم إلا فى تؤدة وبيد ثابتة ..

و .. آى ! لقد ارتطم رأسى بواحد من تلك الأشياء المدببة التى تحب التدلّى من سقوف الكهوف ..


بل هى أقرب إلى جدران صخرية ، والجدران قد دفنت فيها هياكل عظمية كاملة ..

يبدو أنهم يسمونها (الهوابط) .. لكن (الجيولوجيا) هى آخر ما يمكننى تذكره الآن ..

إننى .. آى ! ضربة أخرى ..

شعور البلل الساخن على جانب وجهى لا يعنى سوى شىء واحد ..

المذاق المالح فى الفم .. المذاق الصدئ قليلاً .. و .....

* * *

ظلام !

* * *

كنت على منضدة خشبية قاسية أرمق السقف غير فاهمة لشىء .. ورأيتهم – بين اليقظة والمنام – يحيطون بى .. عددهم حوالى الخمسة يرتدون ما يشبه مسوح الرهبان السوداء ، لكنهم يغطون بها وجوههم تمامًا فلا تستطيع تبين ملامحها ..

وأدركت أننى موجودة فيما يشبه بهو قصر قديم .. قصر أو قلعة .. أذكر البرد الشديد الذى كان يسرى فى عروقى ، والشعور اليقينى بأن هذا كله حلم من أحلام سقطتى ..

كانوا يتحدثون بلغة رومانية قديمة من التى نطالعها فى كتب المدرسة .. وثمة عدد من المشاعل تلقى ظلالها على المكان ممزوجة برقصة الضوء .. لكننى لم أكن خائفة ..

قال واحد منهم بصوت متحشرج قليلاً :

– « هأنتذى يا فتاة بيننا .. لقد اجتزت الثغرة إلى (جانب النجوم) .. »

وقال آخر بصوت مبحوح :

– « إن سنك مناسبة حقًا .. فنحن نفضل من هى على أعتاب الشباب .. إنهن أكثر اتصالاً بالأثير وأكثر انفصالاً عن المادة .. »

وقال ثالث بصوت مخنوق :

– « أنت المختارة إذن .. التى جاءت بمحض إرادتها الحرّة لتنزف دمها الشابّ فى المحراب .. »

ثم بصوت آمر :

– « هاتِ الإكسير أيها الأخ (سانجينوس)(*) .. »

وشعرت بالقارورة تدنو من شفتى .. ولم يقل

(*) إن (ناديا) لا تعرف اللاتينية .. لذا لا تعرف أن (سانجينوس) مشتقة من (سانجينيوس) بمعنى (دمّ) ..

أحدهم لى أن أشرب .. لكنى فعلت مدفوعة بظمأ حارق .. كان الشراب عطريًا قليلاً له مذاق حرّيف .. فما إن فرغت من احتسائه حتى سمعت تنهدات الراحة ..

بعد هذا لا أذكر ما حدث بالضبط ..

فقط كنت غير واعية ، لكنى أسمع صوت أحدهم يقول :

- « أنت لن تموتى .. ستعيشين لتكونى من إخوة الدم .. وعندها تلفظين كل خطايا الماضى .. »

وأسمع آخر يقول :

- « (هو) - الذى يمشى فى الظلال - يريد منك أن تجلبى له آخرين .. »

وأسمع ثالثًا يقول :

- « فلتعودى من (جانب النجوم) يا فتاة .. »

- « ولتتأهبى لقدوم (هو) .. (هو) الذى يمشى فى الظلال .. »

- « (هو) - الذى يمشى ..... »

ثم لا شىء .....

* * *

وكنت خارج الكهف من جديد .. ممزقة الأوصال مزعزعة الكيان ، لكنى تحاملت لأقف على قدمى ..

كانت الشمس قد غابت لكن الأفق لم يعد مظلمًا بعد ..

وتحسست جيبى .. كانت هناك قارورة صغيرة ، وعرفت دون سؤال أو حاجة لأن أفتحها ، أنها تحوى الإكسير .. أو المادة الخام له ..

هى ذى دراجتى .. حيث تركتها بالضبط منذ ساعات ثلاث ..

ركبتها وانطلقت نحو دارى ..

كنت أعرف أن علىّ أن أجد شخصًا آخر لنغدو اثنين ..

لقد اختارنى (هو) - الذى يمشى فى الظلال - عالمًا أننى لن أخذله ..

وكان علىّ أن أبدأ بـ (فيروزة) ..

من سواها ؟

* * *

حكاية الصحفى البدين

يحكيها هو بنفسه

- ١ -

قال (جوستاف) :

- لم نكن نعرف شيئًا عن كل هذا ، حين راح أولئك المسوخ يدفعوننا دفعًا إلى الكهف وهم يتصايحون ..

وانحنينا كي نمرّ تحت الحبل الذى وضعوه على المدخل .. ثم وجدنا أننا نقف أمام المدخل عطن الرائحة نتبادل النظرات ..

سألت (رفعت) وأنا أرمق الوجوه فى ضوء النيران :

- « هل تريد رأيى يا (رفعت) ؟ واضح أنهم لن يدخلوا معنا .. »

قال لاهثًا وهو يستجمع وعيه المبعثر :

- « لا بأس .. هذا يبدو أفضل .. »

وأردف وهو ينظر للمدخل المظلم :

- « نحن نعرف ما ينتظرنا مع هؤلاء القوم .. وهو أسود من الليل وألعن من الشياطين .. لكننا لا نعرف ما ينتظرنا بالداخل .. أفضل أن نجرب هذا الاحتمال .. »

ابتلعت ريقى ودسست يدى فى معطفى ، وقلت :

- « حسن .. ابدأ أنت بالدخول إذن ! »

★ ★ ★

رحنا نخطو فى الظلام إلى أن مددت يدى فى جيب المعطف ، وأخرجت الكشاف .. وعلى ضوئه تحسن الأمر قليلاً ..

وقفت و(رفعت) بضع دقائق نرمق المكان الذى نقف فيه ، والذى كان كهفًا عاديًا جدًا .. ولم تكن هناك وطاويط لحسن الحظ .. يبدو أنها خرجت باحثة عن رزق ليلتها ..

سألنى (رفعت) وهو يتحسس الجدران المغطاة بالكلس :

- « هل سيتركوننا نخرج ؟ أعنى هل سنظل هنا للأبد بانتظار الموت أم أن التجربة انتهت عند هذا الحدّ ؟ »

مططت شفتى السفلى بمعنى أننى لا أعرف ..

ثم أشرت له كى نتوغل أكثر فأكثر ..

لم تكن هناك فرصة كى نضلّ طريقنا لأن الكهف عبارة عن ممر واحد ليست له ممرات فرعية .. ليس أمامك سوى التقدّم أو التراجع ..



رحنا نخطو فى الظلام إلى أن مددت يدى فى جيب المعطف ، وأخرجت الكشاف .. وعلى ضوئه تحسن الأمر قليلاً

كان الثرى مبتلاً فثمة قطرات مائية تتساقط من السقف ..

وعلى ضوء الكشاف رأينا عشرات من العيون الحمراء البراقة ، ترمقنا فى ذعر حقيقى ، جوار الجدران ..

فئران .. وأنا أمقتها .. لكنها مذعورة مثلنا أو أكثر ..

أخيرًا ـ بعد عشر دقائق من المشى ـ وجدنا شيئًا ما ..

وسمعت (رفعت) يقول وهو يثبت عويناته على قصبة أنفه ليرى أفضل :

ـ « مقبرة ! أو ـ بمعنى أدق ـ جثث تم دفنها فى الجدار ! »

* * *

رحنا نتأمل المشهد على ضوء الكشاف .. كانت هناك نحو العشرين جثة ، وقد تم دفنها واقفة فى الجدار ، وإن ظل جزء منها خارجه .. ومن الأيدى العظمية الخارجة من الجدار ، والتى بدا كأنها تحاول اقتناصنا أو إمساك أى شىء من ثيابنا ؛ عرفنا

الحقيقة المفزعة : لقد دفن هؤلاء أحياء ، ولم يعبأ أحد بتوسلاتهم ، بينما مادة البناء تجفّ ببطء !

سألنى (رفعت) وهو يخرج من جيبه العلبة إياها ، ليدسّ قرصًا تحت لسانه ، محاولاً منع قلبه من التوقف :

ـ « هل تعرف موضوعًا كهذا فى تاريخكم ؟ »

ـ « بالطبع لا .. هل تحسبنا وحوشًا ؟ »

ـ « لا سمح الله .. لكن تاريخكم حافل بقطع الرقاب والخوازيق وخلافه .. ولربما كان موضوع الدفن فى الجدران معروفًا عندكم .. لقد اعتمد (نبوخذ نصر) على أجساد الأسرى فى أثناء بناء سور (بابل) العظيم .. أى أنها طريقة قديمة قدم البناء ذاته .. »

ـ « لا أحد يدفن البشر فى جدار ما لم يكن مخبولاً .. »

دنا (رفعت) من أحد الهياكل العظمية ، وتأمله فى اهتمام .. كان يمثل النصف الأيسر لرجل كامل على حين اختفى النصف الأيمن داخل الجدار ، وكان الكلس وعوامل القدم قد جعلاه يبدو أقرب إلى نحت متقن منه إلى إنسان ..

رأيته يعالج الصخر المحيط بالشىء بأظفاره ، وهو جهد بلا جدوى طبعًا ، لذا مددت يدى فى جيبى لأناوله مطواتى الفاخرة :

- « جرِّب استعمال هذه .. »

تأمل المطواة ، وفتحها .. ثم نظر لى .. وقال دون أن يضحك :

- « هل أنت واثق من أنك لا تحمل دبابة فى جيب هذا المعطف ؟ لو كنت تحمل فراشًا للنوم أرجو أن تخبرنى .. لأن ...... »

وهنا كان نصل المطواة قد غاص فى الحجر المتآكل .. وراح يحاول أن يخلخله ليرفع جزءًا منه .. أخيرًا بعد جهد حذر سقطت بضعة أحجار على الأرض ، وعاد هو يواصل ما بدأه على ضوء الكشاف ..

- « احترس يا (رفعت) .. لو انكسر نصل المطواة لـ ..... »

مزيد من الحجارة يسقط .. أخيرًا تحرر ثلثا الجسد عند الصدر .. واستطعت أن أرى خرق القماش البالية .. ثياب هذا الشىء التى كان يرتديها منذ يعلم الله وحده متى ..

- « (رفعت) ! هل ستخرجه بالكامل ؟ »

كانت مهمة قذرة .. لكن العظام أقل رهبة من الجثث الكاملة على كل حال .. خاصة العظام التى نظفتها القرون ..

لكن (رفعت) لم ينتو إخراج الهيكل بكامله ..

رأيته يشير إلى شىء معلق حول عنق الميت .. قربت ضوء الكشاف وتأملته .. إنه صليب أثرى عتيق .. ولكن ماذا فى ذلك ؟

رأيت (رفعت) يخرج شيئًا آخر .. شيئًا يشبه الوتد الغليظ قد انغرس وسط الضلوع فهشم أكثرها ، وانتزعه بصعوبة بالغة ..

وقف يتأمل الوتد البالى فى ضوء الكشاف .. ثم قال بصوت هادئ :

- « الأمر واضح .. هذه جثث مصاصى دماء ! »

* * *

- « عمّ تتحدث يا (رفعت) ؟ هل ستردد بدورك هذا الهراء ؟ »

قال وهو يقذف الوتد إلى الأرض :

- « أردده لكنى لا أصدقه بالضرورة .. الأمر واضح .. هذه الجثث دفنت فى الجدار بعد غرس الأوتاد فى قلوبها وتعليق الصلبان حول أعناقها .. وبرغم هذا لم يمت الجميع ..

« إنها الطريقة التى لجئوا إليها فى القرون الوسطى ، للتخلص من مصاصى الدماء ها هنا .. والأسطورة تقول إن مصاص الدماء يظل ميتًا حتى ينزع أحد الحمقى الوتد من قلبه .. ومن الواضح أن فكرة الدفن فى الجدار مثالية لمنع انتزاعه .. »

- « وأنت نزعت هذا الوتد ! »

قال فى ازدراء :

- « الموتى لا يعودون للحياة قبل قيام الساعة .. هذا هو الشىء الوحيد الذى أثق به هنا .. »

ثم نظر إلى ساعته ، وسألنى وهو يجفف عرقه :

- « كم لبثنا ها هنا ؟ »

- « ما يقرب من ساعة .. »

- « وهل هذا الكشاف قادر على تحمل فترة أطول ؟! »

نظرت إلى الكشاف فى قلق .. لقد نسيت هذه العادة السيئة لدى الكشافات ..

قلت وأنا أركل الوتد على الأرض :

- « اطمئن .. إن ضوء هذا الكشاف لا ينتهى إلا عندما ينتهى ! »

* * *

- ٢ -

وعلى ضوء الكشاف الذى ما زال قويًا لحسن الحظ ، واصل (رفعت) الحفر بالمطواة فى جزء آخر من الجدار .. الجزء المواجه لنا .. وكان هشًا جدًا ..

قلت له فى سأم :

- « ماذا تحاول عمله ؟ لن تثقب الكهف بالمطواة أبدًا .. »

قال والعرق يغمر صلعته ، وقد بدأ فى اللهاث كالمذعوبين :

- « هه .. هه ! أحاول التأكد من أن .. هه .. هذا الجدار لا يفصلنا عن بقية .. كوح كح ! الكهف ف .. »

- « لكنك ستقضى نحبك قبل التأكد من شىء .. »

- « إننى بكامل لياقتى .. ومازال .. هه ! قرص (النترات) تحت لسانى .. »

وهنا صمت ..

لقد رأينا وراء الصخور التى تفتتت بما فيها .. المعالم الخارجية المتسخة لباب خشبى عملاق ..

باب عليه صليب هائل الحجم ، وقد ازدان - الباب - بنقوش معقدة جدًا ..

نظر لى (رفعت) نظرة من نوع (هل - رأيت - كم - أنا - ذكى - يا أحمق ؟) .. ثم تناول الكشاف منى وراح يتفحص الباب العملاق ، ودون كلمة أخرى واصل انتزاع الحجارة بيده الحرّة ..

أخيرًا - بعد عشر دقائق - صار الباب جليًا لعيوننا ..

وزال لدىّ كل شك فى أننى أحلم .. هذا الشىء موجود حقًا ..

- « ربّاه ! يبدو لى كباب الجحيم ! »

قال (رفعت) وهو يجلس على الأرض يلتقط أنفاسه :

- « لن يدهشنى هذا .. فقد أغلق أحدهم هذا الباب يومًا ، ثم بنى وراءه جدارًا قوّاه بجثث مصاصى الدماء .. فماذا يمكن أن يكون وراءه ؟ ليس (بابا نويل) بالتأكيد .. »

وطوّح لى المطواة :

- « مطواتك ! »

أما أنا فراحت عيناى تفتشان فى الخشب العملاق

المتآكل .. خشب عاش قرونًا .. وأخيرًا وقعت عيناى على وثيقة من جلد الحيوانات المدبوغ ، مغبَرة جدًا ، قام أحدهم بتثبيتها على الخشب ..

وكانت مكتوبة بحروف سلافية عتيقة بولغ فى زخرفتها .. لكنها مفهومة مقروءة .. قلت لـ (رفعت) وأنا أقرب الكشاف من الوثيقة :

ـ « إنها تنصحنا بعدم فتح الباب .. »

أراح رأسه للوراء ونزع عويناته .. وتنهّد :

ـ « ما كنت لأحتاج إلى وثيقة أثرية تخبرنى بهذا .. »

أردفت وأنا أبعد عينى عن الورقة ، وأنزع عويناتى بدورى لأرى أفضل :

ـ « إليك المكتوب .. إنها لغة رومانية قديمة جدًا لكنها مفهومة لمن كان مثقفًا مثلى :

ـ « فلينتصر من على حق .. »

« أنا الكونت (ستيفانو) هراوة الربّ ، ومنفذ كلمته فى هذه الربوع ، أكتب للأجيال القادمة كى أحذر أبناءها من فتح هذا الباب ..

« إن شرًا مستطيرًا قد حلّ بقرية (هالماجيو) من

أعمال (بوكوفينا) ، واستغاث بنا القرويون أنا الكونت (ستيفانو) حامل راية الأسد المجنح وحامى حمى الكنيسة ، لذا جئنا ها هنا واستطعنا بفضل العلى القدير أن نستأصل شأفة الموتى الأحياء والـ (فامفيرى) من البلاد .. »

سألنى (رفعت) عند هذا الجزء :

ـ « ما الـ (فامفيرى) ؟ »

ـ « مصاصو الدماء .. لاحظ تشابه الكلمة مع لفظة (فامباير) (Vampire) الإنجليزية التى تعنى الشىء ذاته .. »

ثم واصلت القراءة :

ـ « واستطعنا ـ بعون العلى القدير ـ أن نجد بوابة الجحيم التى يأتى منها الـ (فامفيرى) إلى عالمنا مما يسمونه (جانب النجوم) ، ولقد أغلقناها بإحكام ورشّ الآباء عليها الماء المقدس وصلوا كثيرًا ، كما قمنا أنا الكونت (ستيفانو) سليل العظماء بدفن كل الـ (فامفيرى) فى الجدار الذى أحكمنا به غلق الباب ..

« لكن الباب قد ينفتح لو تلوث هذا الكهف بدم



قال وهو ما زال جالسًا على الأرض يتأمل عويناته فى يده :
ـ «رأيى أن هذا الكونت لا يكف عن امتداح نفسه» ..

عذراء شابة ، عندها يعمّ الهول وتغزو الأبالسة الأرض لتملأها جورًا ..

« أقول للأجيال القادمة التى قد تجد هذا الباب : إياكم وفتحه .. هذا الباب هو مدخل الشياطين إلى عالمنا ، وهو واحد من سبعة مداخل فى (رومانيا) ، لكنه أكثرها هولاً وخطرًا .. »

« انتهت رسالة الكونت يا (رفعت) .. ما رأيك ؟ »

قال وهو ما زال جالسًا على الأرض يتأمل عويناته فى يده :

ـ « رأيى أن هذا الكونت لا يكف عن امتداح نفسه .. لم أر أحدًا يلقب نفسه بكل هذه الألقاب فى عشرين سطرًا .. »

ـ « أنا لا أملك مزاجًا لسماع دعاباتك السخيفة .. كن جادًا ! »

قال لى (رفعت) وهو يرتدى عويناته ، وينهض :

ـ « حسن .. سأسمع رأيك أولاً ثم أقول لك كم أنت غافل .. »

أطفأت الكشاف لأدخره قليلاً ، ثم قلت فى الظلام الدامس :

ـ « أنت تعرف موضوع الفتحات التى تصل ما بين عالمنا و(جانب النجوم) .. من الواضح أن إحدى هذه الفتحات موجودة فى هذا الكهف ، وهو ما عرفه الناس منذ زمن ، وحاولوا غلقها بهذا الباب وبجثث مصاصى الدماء .. ويبدو أن الفتحة ظلت مغلقة قرونًا ..

« الآن يمكن القول إن إحدى مراهقات القرية دخلت ها هنا .. وجرحت نفسها .. بلل دمها ـ دم العذراء ـ الأرض .. وهكذا بدأ الكابوس وتسرب مصاصو الدماء إلى هذه القرية البائسة ليحيلوا حياتها جحيمًا ..

« ما أريد قوله هو أن هذا الباب غير موصد .. »

ـ « فلنتأكد .. »

ونهضت لأعيد إضاءة الكشاف وأسلطه على الباب .. كل شىء يبدو على ما يرام .. لكن .. ها هو ذا مزلاج منزلق عن موضعه .. مزلاج عملاق يصلح لغلق بوغاز .. لكنه ليس مغلقًا ..

هو ذا مزلاج آخر مفتوح .. بالواقع إن الباب موارب ، لكنه ليس موصدًا على الإطلاق ..

نظرت لـ (رفعت) ، ونظر (رفعت) لى ..

ـ « ما رأيك ؟ »

ـ « أنت محقّ .. ومن هذا الباب سيأتى الكابوس .. »

ـ « أى كابوس ؟ »

ـ « الشىء الذى أرغمونا على دخول الكهف من أجْله .. فهم بالتأكيد لم يدخلونا هنا كى نثرثر فى الظلام .. »

ارتجفت للفكرة ، وعاودت تأمل الباب الموارب .. هل نرجع ؟ سيفتك بنا هؤلاء الممسوخون بالخارج .. هل ننتظر هنا ؟ سينفتح الباب ويخرج منه ما لا أطيق رؤيته حتمًا ..

وهنا جاءتنى الفكرة الوحيدة التى بدت معقولة :

ـ « (رفعت) .. قد يكون هذا الباب وهمًا .. لِمَ لا نفتحه ونرى ما وراءه ؟ »

ـ « هل جننت ؟ »

ـ « بالعكس .. إنها الطريقة الوحيدة لفهم ما يحدث وربما النجاة .. من أدرانا أن هذا الباب لا يقود إلى خارج الكهف وربما خارج القرية ؟! »

* * *

حكاية الطبيب النحيل

يحكيها هو بنفسه

ـ ١ ـ

قال د. (رفعت) :

ـ « الرعب خلف باب مغلق » ..

لن تكف هذه التيمة عن إثارة ذعرنا حتى تقوم الساعة أو يستبدلوا بالأبواب اختراعًا آخر .. »

★ ★ ★

فى تؤدة ربط (جوستاف) الحبل حول خصره ، وكنت أحمل هذا الحبل فى جيب معطفى .. طوله خمسة أمتار لكنه جيد متين .. أمسكت بالطرف الآخر وربطته حول معصمى .. بهذا الحبل لن نضلّ طريقنا أو يتعثر أحدنا فى حفرة ما ..

أخذ شهيقًا عميقًا ودنا من فتحة الباب ، ونظر لى .. ثم غمغم :

ـ « كن حذرًا .. انتظر حتى يصير الحبل مشدودًا ثم اتبعنى .. يجب أن يكون أحدنا فى أمان لينقذ الآخر لو حدث شىء .. »

ـ « حافظ على الكشاف .. فإن لقيت حتفك لا تنس أن تعيده إلىّ .. »

وارب الباب فى حرص بضعة سنتيمترات .. لم يحدث شىء .. رفع الكشاف قليلاً ليتفقد ما وراء الفتحة ثم هزّ رأسه .. لم أفهم معنى هذه الهزّة .. يمكن أن يكون معناها (لا شىء) أو يكون (يا للهول !) ..

المهم أنه اجتاز الباب وعبر إلى جانبه الآخر ، ومعه عبَر الضوء .. وكذا وجدت نفسى فى ظلام دامس كظلام الرحم .. أو كظلام القبر ..

وحبست أنفاسى وأصغيت فى اهتمام لما يحدث بالجانب الآخر ..

هنا لم يعد الإصغاء ذا أهمية ما ..

* * *

سمعت الصراخ الشنيع والزئير .. وسمعت صوت الرياح .. وراح الباب يترجرج كأنما يوشك أن يخرج من حلقه ..

ومن الفتحة المواربة تسرّب شعاع أحمر مريع ، وتسرّب دخان لا أدرى هل هو أحمر أم هو يعكس لون الشعاع ..

- « (جوستاااااف) ! »

صرخت حتى خرج لسانى من أصوله .. صرخت

حتى وثبت عيناى من محجريهما ؛ فالذعر الذى غمرنى كان أعمق من أى تعقل ..

- « (جوستاااااف) ! »

ألصقت ظهرى بالباب جاهدًا كى لا تجذبنى قوى الهلاك إلى الداخل ، أو تخرج لى حيث أنا ..

صوت الصراخ والعواء والأنين والخوار والغطيط والنواح والعويل والبكاء والثبور .. كل هذا يمزق طبلتى أذنى ..

وشممت الرائحة الشهيرة : رائحة الكبريت .. رائحة مصاصى الدماء ..

- « (جوستاااااف) ! »

وتحرك الباب بقوة ، فرمانى إلى الوراء مترين ، وتوتّر الحبل ..

* * *

هنا انفتح الباب قليلاً ، وطار الكشاف إلى الداخل ليسقط فوقى .. ثم رأيت النصف العلوى لـ (جوستاف) يبرز من فرجة الباب .. يتشبث به فى قوة ، وعلى وجهه علامات ذعر حيوانى لم أرها قط ..

- « (رفعاااات) ! إنهم يجذبوننى ! »

هرعت إلى الباب واعتصرت كم معطفه ، وتراجعت للوراء .. كانت قوى الجذب غير عادية .. لقد تذكرت هذه اللحظة كثيرًا فيما بعد حين رأيت سمكة القرش العملاقة تجذب الصياد إلى الأعماق فى فيلم (الفك المفترس) ..

لكنى كنت أملك الحبل .. وسرعان ما قمت بلفه حول صخرة كبيرة بارزة من الأرض .. بهذا ضمنت ألا يضيع الرجل لو تخاذلت أنا .. ثم رحت أجذبه بكل قواى وأنا أردد آية الكرسى والمعوذتين وكل ما فى قلبى من أدعية ..

أخيرًا بدأنا نكسب المعركة .. بدأ يلين .. وسرعان ما لحق بى إلى الداخل .. وأغلقت الباب وراءه ..

ولدقائق رقدنا نلهث وظهرنا للباب ، شاعرين بضربات هائلة من الجانب الآخر .. قلت لـ (جوستاف) مطمئنًا :

ـ « لا تخش شيئًا .. إنهم يحاولون إرعابنا .. يستطيعون الدخول فى أية لحظة لو أرادوا .. هم فقط غير راغبين ! »

لم يرد .. كان منهمكًا فى صلاة طويلة باللغة

الرومانية .. وشفتاه ترتجفان .. لقد تهشمت عويناته وتبعثر شعر رأسه الواهن .. أنامله تهتز كذيل حية الجرس .. ماذا رآه بالضبط ؟

أخيرًا هدأت الطرقات وأمكننى أن أسترخى قليلاً ..

نظرت لمزلاجى الباب المفتوحين الصدئين ، وأدركت أنه من المستحيل أن أغلقهما .. الباب كله لا يمكن غلقه ..

فلآمل أن الكائنات على الجانب الآخر لا ترغب فى الخروج الآن .. ربما هى ـ فقط ـ ثارت وماجت لأن (جوستاف) دخل لها ..

سألته فى هدوء وبصوت يحاول ألا يفزعه :

ـ « (جوستاف) .. ماذا رأيت هناك ؟ »

لم يرد .. فعاودت السؤال :

ـ « (جوستاف) .. ما الموجود هناك ؟ »

ظل صامتًا فنظرت له متوقعًا أن يكون قد مات .. كلهم يفعل ذلك فى السينما ، لكنه كان حيًا .. فقط كان متسع العينين يرمق الباب فى بلاهة ، وانفتح فمه فسال اللعاب منه ، لكنه لم يبال به ..

حقًا إننى فى مأزق .. سجين هذا الكهف الذى ينتظر مصاصو الدماء الشاحبون خارجه ، وينتظر (جانب النجوم) بداخله ، وعلىّ أن أواجه هذا مع رفيق فقد عقله نهائيًا !

* * *

- ٢ -

رائحة الكبريت هذه !

* * *

علىّ أن أجد حلاً سريعًا ..

لقد بدأ ضوء الكشاف يخبو .. عرفت هذا لأننى كنت منذ دقائق أجلس فى هذا المكان وأرى تفاصيل الباب ، أما الآن فقد صار الباب مبهمًا غارقًا فى الظلال .. و ...

* * *

(هو) ـ الذى يمشى فى الظلال ـ ينتظرك ..

* * *

ولكن ما الذى رآه (جوستاف) ؟ ما الذى يراه المرء ويجعله يجنّ ويفقد النطق ؟ الحق أننى لا أريد أن أعرف .. (فى قصة قادمة سأحكى للقارئ رحلتى إلى جانب النجوم وما رأيت فيه ، لكن دعنى أعترف أننى لم أزر جانب النجوم فى المغامرة التى بين يديك الآن) ..

الكشاف يضعف أكثر ..

لا سبيل إلى مغادرة الكهف عن طريق الباب .. لا سبيل إلى مغادرته عن طريق الفتحة التى يحيط بها الشاحبون ..

هل أنتظر للصباح عندما يغادر هؤلاء مكانهم ؟ نظرت لساعتى فوجدت أنها الواحدة بعد منتصف الليل .. أنا لا أضمن نتائج بقائى ها هنا ست ساعات كاملة حتى تملأ الشمس السماء .. ربما كان كهف المفاجآت هذا يحوى المزيد من الأسرار الشائقة لنا ..

هل تحرك هذا الهيكل ؟ لا .. لا أظن .. إنها لعبة الظلال إياها ..

* * *

(هو) ـ الذى يمشى فى الظلال ـ يعرف كيف يثير هلعك ..

* * *

هنا قرّ رأيى على فكرة خطرة ..

خطرة لكنها مغرية ..

الشاحبون ينتظرون خارج الكهف .. ينتظرون ماذا ؟ ينتظرون هلاكنا أو تحولنا إلى شاحبين مثلهم .. لقد قالوا إن علينا أن نغدو منهم .. فماذا لو حدث هذا ؟

إنها لعبة خطرة .. خاصة وقد أصيب مترجمى الوحيد المختص بالترجمة (الرومانية / الإنجليزية) بالخبال .. ولن أعرف أبدًا ما سيقول هؤلاء القوم ..

لكنى لن أتردد أكثر .. سأحاول أن أؤدى دورى جيدًا ..

* * *

كان هناك الكثير من الحجر الجيرى على الجدران ، فرحت أفركه بيدى ثم مسحت كفى على وجه (جوستاف) المكتنز .. لم يبد أنه لاحظ شيئًا .. رأيت اللون الأبيض يغمر البشرة فرحت بكفى أحاول جعله أكثر تجانسًا .. وأخيرًا بدا لى (جوستاف) كعفريت أبيض البشرة .. لكن ..

(فلنتأمل ألا يعرق .. إن العرق يفسد كل شىء)

حاجباه اكتسبا اللون الأبيض بدورهما ، فرحت أنظفهما بلعابى .. لا بأس لن يضايقه هذا ..

قمت بنفس العمل لنفسى وأحكمت مسح صلعتى .. ونظفت حاجبىّ وشاربى جيدًا .. ثم مددت يدى إلى جيب (جوستاف) وأخذت المطواة ..

آى ! كادت ساقى تقتلنى ألمًا حين أدميتها بالنصل ..

لكن لا حيلة لى فى هذا .. لا بد من بعض الدماء على الشفتين لتعطى تأثيرًا دراميًا قويًا .. وهكذا لطخت شفتى (جوستاف) وشفتىّ و ...

(لا بد أن هناك ثغرات كثيرة فى هذا التنكر)

بعثرت بعض قطرات الدم على ياقة قميصه وفراء (الاستراخان) إياه ..

وكان آخر شىء فعلته هو أن مسحت يديه حتى المعصمين بالجير ، وفعلت الشىء ذاته مع يدىّ ..

إن الجير يحرق .. وقد شعرت بجلدى يئن شاكيًا .. لو خرجنا حيين من هذا الموقف لعولجنا من (الإكزيما) لمدة عامين ..

والآن ـ وقد تم إخراج المشهد ـ علينا أن نغادر هذا الكهف حالاً .. وقبل أن يلفظ الكشاف آخر أنفاسه ..

* * *

رائحة الهواء النقى تبعد عنا رائحة الكبريت ..

(جوستاف) يمشى ورائى وأنا أجره من يده ، كأنما هو إنسان آلىّ .. فما إن رأيت مدخل الكهف ، وأشباح الواقفين خلفه ، وضوء النيران التى أشعلوها ؛ حتى أدركت أن خطتى فاشلة ..

من قال إننى أستطيع خداع هؤلاء بتنكر ساذج ، قمت بعمله فى ضوء كشاف يحتضر ؟ ألن يتحسس أحدهم بشرتى ؟ ألن يبلل العرق جبينى ليفسد كل شىء ؟

لقد كنت ـ للمرة البليون ـ ساذجًا .. ساذجًا ..

لكنى قررت الاستمرار فى حماقتى .. يقولون للمبتدئ فى القيادة : إذا أخطأت فلا تتردد .. واصل حماقتك لأن التردد قد يحدث كارثة ..

إذن فلأواصل حماقتى .. ولآمل أن يكونوا أحمق منى ..

* * *

جميعًا كانوا هناك .. (شيطان الظلام) .. (نهر النار) .. (الروح الكبرى) وآخرون .. بوجوههم المسخية المتآكلة يرمقوننا فى فضول ..

شخصت ببصرى إلى السماء مقلدًا (صالح سليم) فى (الشموع السوداء) ، أو كأننى (أحمد مرعى) فى فيلم (المومياء) .. فقد كان يكفينى أن تلتقى عيناى بعينى أحدهم ليفتضح كل شىء ، ومشيت بينهم متصلب الخطى ، متقمصًا دور من رأى تجربة مروعة ..

سمعتهم يتهامسون .. والأخت الكبرى تتكلم بالرومانية ، وتشير بكفها ذى الإصبعين المفرودتين .. ماذا تقول يا ترى ؟ تشك بالتأكيد ..

سمعتهم يوجهون الكلام لـ (جوستاف) لكنه ـ دون تمثيل ـ كان فى أسوأ حالة ممكنة .. وكان هو ورقتى الرابحة الوحيدة ..

رحت أردد كالمجذوبين الكلمة الرومانية الوحيدة التى أعرفها الآن :

ـ « فامفيرى ! فامفيرى ! »

فشهق بعضهم ، وتبادلوا النظرات من جديد ..

وسمعت اللفظة تتردد بين صفوفهم :

ـ « فامفيرى ! فامفيرى ! »

يفسحون لنا الطريق .. لكنى لا أجرؤ على النظر لوجوههم كى أرى ما إذا كانوا يشكون أو يتساءلون ..

هل التمثيل مقنع إلى هذا الحدّ ؟

الحق أننى ـ فى هذه اللحظة ـ كنت ألعب دورى بعبقرية (لورانس أوليفييه) و(سارة برنار) و(جورج أبيض) و(يوسف وهبى) ، لو أنهم اجتمعوا فى شخص واحد .. وصرت أتنفس

كالـ (فامفيرى) ، وأفكر كمصاصى الدماء ، وأمشى كالشاحبين ..

كانوا يفسحون لنا الطريق ..

وراح أمل وحشى يتلاعب فى صدرى .. لكنى لم أجرؤ على الاعتراف به ..

أتراهم يتركوننا نغادر المكان ؟

أتراهم يهابون اعتراض طريقنا باعتبارنا صرنا صاحبى مكانة عظمى ؟

أتراهم ؟

* * *

هنا سمعت صوتًا أسود قاتمًا كئيبًا له نبرات البير ، يقول بإنجليزية لها طابع (أوروبا) الشرقية :

ـ « عرض جيد يا د. (رفعت) .. لكنه لم يخدع أحدًا ! »

واستدرت مبهوتًا ..

لقد عرفت الصوت .. لكنى أردت أن أتأكد من الوجه ..

كان هذا هو د. (لوسيفر)[*] !

* * *

(*) تنويه لمن لم يقرءوا الكتيب العشرين : كان د. (لوسيفر) هو بطل الكتيب العشرين !

ـ ٣ ـ

أردف قائلاً :

ـ « إنهم لم يصدقوك لحظة يا د. (رفعت) خاصة مع هذا التنكر السقيم .. لكنهم ظنوك جننت .. لهذا يراقبون ما ستنتهى إليه هذه المهزلة ! »

★ ★ ★

كان (هو) ..

بشحمه ولحمه .. ثيابه السوداء القاتمة والقرط فى أذنه ، والخواتم الماسية العديدة فى أصابعه ، والقلادة الذهبية على صدره ، والنظرة الخاوية التى لا تدلّ على شىء على الإطلاق ..

ـ « مدهوش أنت للقاء من لا ترتقب لقاءه ! »

وابتسم ابتسامته الواثقة الكريهة ، ومدّ يده يبغى مصافحتى ، لكننى لم أفعل ، ورحت أرمق الوجوه الشائهة التى عادت تحتشد حولنا ..

قال بصوته الذى يجعلك تتمنى سماع أكثر :

ـ « إننى هنا لأننى مدعو .. (هو) ـ الذى يمشى فى الظلال ـ دعانى كى أشهد (أرماجيدون) الجديدة ! »



كان (هو) .. بشحمه ولحمه .. ثيابه السوداء القاتمة والقرط فى أذنه ، والخواتم الماسية العديدة فى أصابعه ، والقلادة الذهبية على صدره ..

قلت بصوت مبحوح :

ـ « حقًا .. يجب أن يكون مثلك موجودًا فى مكان كهذا .. إن (خريبولسن) يعتبر هذه القرية مدينة ملاه يتنزه فيها .. »

ابتسم .. وقال وعيناه ثابتتان على وجهى :

ـ « إننى أنتمى إلى هنا أصلاً .. (بوكوفينا) هى بلد يتأرجح بين (المجر) و (رومانيا) .. لكننى أعتبر نفسى مواطنًا مجريًا .. »

ثم تأمل وجهى ، ومدّ يده الباردة ليمسح الحجر الأبيض عن بشرتى ، وقال :

ـ « سخيف جدًا ! تبدو كالأطفال حين كانوا يدهنون وجوههم بالدقيق ليفزعوا الفتيات ! »

ثم نظر إلى القوم ، وقال بضع كلمات بلهجة آمرة .. ولدهشتى رأيته يتأبط ذراعى كأنما هو صديق قديم لى ، ويقتادنى إلى أحد المنازل المحيطة بالساحة ..

نظرت للوراء لأجد (جوستاف) ما زال واقفًا حيث هو ، وقد عاد فمه مفتوحًا كالبلهاء .. ومن الواضح أنه سيظل للأبد فى هذا الموضع .

ـ « لا تخش شيئًا .. إنه قوى كأسد .. إن هى

إلا صدمة عاطفية أورثتها إياه الأهوال التى رآها فى جانب النجوم .. »

قالها كأنما سمع أفكارى ، وخمّن ما خطر لى ..

وأمام باب البيت الذى قصدناه وقفنا .. أخرج مفتاحًا من جيبه وفتح القفل ثم وارب الباب ودعانى للدخول ..

ودخلت .. فلم يكن أمامى شىء آخر أفعله .. إننا تحت رحمتهم على كل حال ، ويمكنهم تمزيقنا متى أرادوا ..

★ ★ ★

كان البيت مظلمًا عفنًا كعادة بيوت هذا الجزء من (هالماجيو) .. لكنه لم يحاول إضاءة أى أنوار كهربية ..

تناول شمعة حمراء كبيرة وضعها على المنضدة ، ومدّ يده لى مفرودة الكفّ فى رسالة فهمتها على الفور .. أشعلت قداحتى ولامست بلهبها الفتيل فانبعث النور الخافت الخجول فى المكان ..

وقف يرمقنى بنظراته الثابتة المزعجة ، بينما جلست أنا منتظرًا خطوته التالية .. قال وهو يخطو بتؤدة نحوى :

- « الحق أننى لم أتوقع أن أجدك هـا هنـا .. لكنى أذكرك تمامًا .. قليل هم من يرون الشمس فينكرون .. »

قلت وقد فقدت شغفى بالمقاومة :

- « إن أشياء شيطانية تدور ها هنا .. الكل يعرف هذا .. لكنى - أصارحك - لم أتوقع أنك وراء كل هذا .. »

هزّ يديه بحركة براءة تمثيلية ، وقال بصوته البيرى الرنّان :

- « لست وراء كل هذا .. ظننت أننى أوضحت لك أننى مدعو .. أنا مثلك تمامًا مع فارق واحد هو أنك وصاحبك غير مدعوين .. ولكن عليك أن تشكر ربك على وجودى ها هنا فى هذه اللحظة .. وإلا لمزقكما الشاحبون إربًا ..

« هذه هى فائدة المعارف والصلات ! »

على الرغم منى ابتسمت .. وسألته قلقًا :

- « ولماذا تبقى علينا ؟ ظننت أهدافك وهؤلاء المخابيل واحدة .. »

- « هذا صحيح .. لكنى سأبقى عليكما لتكونا شاهدين على قدوم (هو) ..

« بعد هذا سيقرر هو ما يجب عمله بشأنكما .. يجب التصرف بحكمة ؛ لأن اختفاء صحفى مهم من (بوخارست) وأستاذ جامعة مصرى لن يمرّ دون ضوضاء .. وعلى هؤلاء القوم أن يدركوا هذا .. حتى ولو كانت أزاهير الغرور وحمية الحمق قد ملأت أرواحهم ..

« نعم هم أقوياء .. لكن كالنبت الذى نما وترعرع .. لكن انتزاعه أو حرقه ما زال ممكنًا .. القوة الحقة هى يوم يغدو هذا البيت دغلاً هائلاً متشابكًا .. »

ابتسمت من جديد ..

ما زال الرجل يملك قاموسًا هائلاً من التعبيرات الشعرية .. وما زال حريصًا على الكلام بلغة المسرح لا لغة الواقع ..

سألته وأنا أتأمل لهب الشمعة :

- « من هو (هو) هذا ؟

- « إنه (فلاد الوالاشى) طبعًا ! »

* * *

واتسعت عيناى دهشة ، وللحظة أفلت قلبى ضربة .. صحيح أننا فى (رومانيا) بلد (فلاد) لكننى ظننته بعيدًا جدًا فى الزمن والمكان ..

- « هل تعنى الكونت ؟ »

- « حتمًا ! »

- « الكونت (دراكيولا) ؟ »

- « سمه كما تشاء .. (دراكيولا) .. (فلاد) .. (نوسفيراتو) .. كلها تدلّ على ذات الشخص ، أو لنقل ذات الشيء ؟!

أخرجت منديلاً ورحت أنظف به المسحوق الأبيض على بشرتى ، وعدت أسأل مرشدى الرهيب :

- « أنا لا أفهم .. لقد قُتل مصاص الدماء منذ قرون .. ولقد حضرت تجربة لمحاولة إحيائه لكنها - لأسباب يطول شرحها - لم تتم .. وكانت مومياؤه موجودة .. كان ميتًا كما يكون الموت .. وأنا لا أظن أنك ستزعم قدرتك - لا سمح الله - على إحياء الموتى .. »

- « أنت لا تفهم .. »

قالها وهو يداعب لهب الشمعة بكفه كما يفعل رجال (المافيا) عند إعلان ولائهم .. وقال :

- « كعادتك تثب إلى الاستنتاجات التى تبرهن على أنك لا تعرف شيئًا على الإطلاق .. (فلاد) لم يمت قط ولم يعش قط .. هل سمعت يا دكتور عن (جانب النجوم) ؟ »

- « بل فتحت بابه منذ نصف ساعة أو أكثر .. وهو سبب ما أصاب صديقى .. »

قال وعيناه مثبتتان على وجهى (إن عينيه لم تطرفا لحظة منذ لقائنا وأقسم على هذا) ..

- « إن (جانب النجوم) هو العالم الموازى الذى يعيش فيه مصاصو الدماء ، والمذءوبون ، والشياطين والعفاريت .. إنه الجحيم بعينه ، ومن العسير على بشرى أن يراه دون أن يجنّ ..

« توجد عدة فتحات فى (جانب النجوم) تصل ما بينه وبين عالمنا .. (رومانيا) وحدها تملك سبع فتحات منها ، أخطرها جميعًا فتحة كهف (هالماجيو) الذى تشرفتما بزيارته ، والتى أغلقها الكونت (ستيفانو) فى القرون الوسطى ..

« ومنذ قرون يحاول سكان (جانب النجوم) المرور إلى عالمنا ، مجتازين الحواجز الطبيعية التى تحمى هذه الأرض ، وكان بعضهم ينجح من آن لآخر ، عندها يظهر مذءوب أو مصاص دماء هنا أو هناك ..

« إن (جانب النجوم) يزخر بمصاصى الدماء المفزعين .. وأخصّ منهم بالذكر (سيجفريد الأميدى)

و(يوليان المغتصب) .. الحق أقول لك إن (فلاد الوالاشى) هو أكثرهم وداعة ورقة .. لكنه يملك قدرة غير عادية على اختراق الفتحة المذكورة ، لذا صار هو أدنى مصاصى الدماء إلى عالمنا ..

« وفى تاريخ (رومانيا) كانت هناك فترات عدة استطاع فيها (فلاد) أن يعبر الثغرة ، ليعيش فى البلاد يعيث فسادًا متخذًا شكلاً أقرب إلى الآدميين ، ولهذا فإن من يعرفه العالم باسم الكونت (دراكيولا) ليس سوى (فلاد) متنكرًا فى صورة آدمية .. صحيح إنه يمصّ الدماء ، ويفعل أكثر ما يفعله الـ (فامفيرى) ، إلا أن هذا ليس سوى عُشر قدرته على الشرّ ..

« وفى النهاية كان الحمقى يقتلونه بوتد خشبى - إلى آخر هذا الهراء - حاسبين أنهم تخلصوا منه .. فى الواقع كانوا يقتلون الهيكل الآدمى الذى اختاره لنفسه ، من ثمّ يتركه ويعود إلى (جانب النجوم) ليعدّ لهجوم آخر بعد أجيال .. »

قلت أنا فى سخرية :

- « معمّرون حقًا أولئك (الفامفيرى) .. »

أجاب (لوسيفر) دون أى فهم لدعابتى :

- « صحيح .. إن متوسط عمر (الفامفيرى) الحقّ ثمانمائة عام .. »

- « لنفرض جدلاً أن ذلك الأخ - ماذا كان اسمه ؟ - (سجريد) .. »

- « (سيجفريد الأميدى)(*) .. »

- « لنفترض أنه استطاع عبور الفتحة ، فماذا يحدث ؟ »

ابتسم كاشفًا عن أسنانه البيضاء إلى حدّ مريب ، وغمغم :

- « إنها نهاية هذه الأرض إذن .. إن شرّه يفوق (فلاد) مائة مرة ، وقوته تفوق (فلاد) ألف مرة .. لكن هذا لن يحدث فى الوقت الحالى على الأقل .. »

ثم أردف وهو يتأمل لهب الشمعة المتراقص :

- « فى (جانب النجوم) يعيش (فلاد الوالاشى) فى إقطاعية كبيرة ، ويسمونه هناك باسم (هو الذى يعيش فى الظلال) ، وهى تسمية تناسبه حقًا إذا ما أردت رأيى ..

(*) فيما بعد قابلت كل هؤلاء فى قصة (أسطورة جانب النجوم) ، وسأحكيها لكم يومًا ما ..

« ولكن (فلاد) كالسوائل .. والسوائل تحبّ أن تنتشر وتتمدد .. لذا ما زال يصبو إلى زيارة الأرض من جديد .. »

قلت له وأنا أنزع عويناتى لأنظفها من غبار الجير :

ـ « دعنى أخمن .. هذه المرة لن يأتى قبل أن يعدّ جيشًا كبيرًا من الشاحبين .. صحيح أنهم ليسوا (فامفيرى) حرفيًا لكنهم يشربون الدم ويعيشون فى الظلال مثله .. »

فى ثقة قال :

ـ « هأنتذا تجيد الاستنتاج هذه المرة .. لقد وُلد الرعب فى (هالماجيو) ليبقى .. ومنه تخرج جيوش الظلام إلى العالم كلّه .. جيوش لا تدين سوى بدين واحد : الطاعة لـ (هو) الذى يعيش فى الظلال ..

« لقد ظلّ الباب مغلقًا قرونًا .. لكن عذراء حمقاء دخلته كى تدمى رأسها داخل الكهف ..

« كان دمها هو المفتاح الذى فتح أقفالاً لم يمسسها أحد طيلة قرون كاملة .. وسرعان ما وجدت نفسها فى (جانب النجوم) تتناول أسرار الشاحبين ، حين عادت إلى الأرض كانت قد صارت الأولى .. عليها أن تضمّ آخرين وآخرين وآخرين .. »

ظل يردد (آخرين) همسًا حتى حسبته قد جُنّ .. ثم أدركت أنه فقط منتش بالفكرة ..

سألته وقد بدأت القصة تتضح أكثر :

ـ « وماذا ينتظر (فلاد) إذن ؟! »

ـ «ينتظر أن تصير (هالماجيو) كلها من الشاحبين .. بعدها يغزو (بوكوفينا) ثم (بوخارست) ثم ..... »

ـ « وكيف يصير الشاحبون شاحبين ؟ »

ـ « لا بد من الإكسير أولاً .. »

ابتسمت فى إنهاك .. الحق أن أحداث ليلة واحدة فى (هالماجيو) كانت أكثر مما يحتمله من فى سنى وضعف بنيتى ..

لكنى تماسكت وسألته :

ـ « إكسير ؟ وهل اسمه (فامفيرين) أو (دراكيولال) أو (فلاد يمايسين) مثلاً ؟ لا أعتقد أن شركات الأدوية ستتحمس له كثيرًا فى مصر .. »

للمرة الثانية فهمت أن لفظة (مزاح) لا معنى لها عنده .. إذ قال :

ـ « الإكسير هو مزيج من دماء (دراكيولا) ونبات الـ (وولف بين) الذى تحيط به الأساطير فى هذا البلد .. »

- « هل تعنى أن دماء (دراكيولا) موجودة ها هنا ؟ »

- « إنما جلبتها العذراء - التى فتحت الباب - معها من (جانب النجوم) .. ويسقونه للمرء قبل امتصاص دمه أو استنزافه ..

« لولا الإكسير ماظلّ أحدهم حيًا بعد تجربة كهذه .. فالإكسير يجرى فى العروق مجرى الدماء .. ويطرد الدم القديم الفاسد .. »

- « تريد القول إن الشخص يعيش بدماء (دراكيولا) بعد هذا ، ولا يعود بحاجة إلى دمائه الأصلية .. إن هذا شبيه بنقل الدم التبادلى الذى يجرونه للأطفال المصابين بالصفراء .. »

قال باللاتينية :

- « أنت تقول .. »

ثم استطرد فى وصف قصة الشاحبين :

- « ومن هنا نبدأ يا د. (رفعت) .. إن المُختَار فى أثناء سريان الدم الجديد فى دمه يُلقَّن مبادئ الطاعة لـ (هو) ، وحين يفتح عينيه يكون قد غدا من الشاحبين فى مجتمع (إنفرنوس) التى كان اسمها (هالماجيو) .. »

سألته سؤالاً أخيرًا وأنا أمنع عينىّ من الانغلاق :

- « وماذا ستفعلون بنا الآن ؟ »

كنت أريد منهم أن يشربوا دمى وينتهوا .. المهم أن يتركونى أنام .. المهم أن يرحمونى من الصياح والحركات الهستيرية .. والمهم - بالذات - ألا يجعلونى أرشف ذلك الإكسير اللعين .. دعونى أمت فى هدوء من فضلكم ولا تحرمونى تلكم الراحة الأخيرة ..

قال د. (لوسيفر) :

- « الحق أننى بوجودك أسعد ، ولك قلبى يطرب .. عرفت من اللحظة الأولى - حول (التاروت) - أننا سنلتقى مرارًا .. وفى كل مرة تتعلم الدرس الدائم : الشرّ لا ينهزم .. يجب أن تتعلم النظرة (المانوية) للكون ككل حيث الشرّ ضرورى وقادر .. »

بحثت عن لفظة إنجليزية لها رنين لفظة (دماغك !) التى نستخدمها فى مصر لتسفيه الآراء السخيفة ، فلم أجد ..

لكنه - كما لى أن أتوقع - قال فى حزم :

- « لا تجهد نفسك .. لقد سمعت اللفظة العربية تتردد فى ذهنك ..

وفهمت معناها .. لكنى ـ لك أنصح ـ أتعشم أن تتعلم شيئا من المصير الرهيب الذى ينتظرك وزميلك .. »

ودون كلمة أخرى غادر المكان ..

ومكثت وحدى فى الظلام أرمق الشمعة المحتضرة ..

★ ★ ★

حكاية الشاحب الرابع

يحكيها هو نفسه

- ١ -

قال (بيلاسكو) :

هو - الذى يمشى فى الظلال - أمرنا أن نتركهما حيين ..

★ ★ ★

لقد كنت واقفًا بانتظار خروج الغريبين - الصحفى البدين من (بوخارست) والرجل الذى يشبه دودة (الإسكارس) - من الكهف ..

كنا نرى المدخل المظلم على ضوء النيران التى أشعلناها فى الساحة ، ولا بد أننا لبثنا ساعتين أو أكثر ننتظر ..

- « حرّرونى .. حرّرونى ! »

كذا صاح (أنطونسكو) ابن القصّاب ، وكان قد صار منّا تمامًا بعدما جرع الإكسير .. لذا هوى (بوريس) بمديته على الحبل ليقطعه ، وهوى آخر الشاحبين بدوره إلى الأرض ، وراح يحبو على أربع محاولاً الاقتراب منّا ..

نظرت للوراء فوجدت ذلك الزائر الغامض الذى

يقولون إنه جاء من (المجر) ليكون بيننا .. يبدو أن اسمه د.(فرانتز لوسيفر) .. وهو اسم يناسبه تمامًا .. إن (لوسيفر) تعنى الشيطان .. وهو أنسب نعت لهذا الرجل الغامض المسربل بالسواد فى كل شىء : عينيه .. شعره .. بذلته .. وحتى صوته .. صوته كان أسود ولا أدرى كيف ..

كنت أهابه بشدة ، لكن الجميع قال لنا إن هذا شرف لا بد أن نسعد به .. ولذا تظاهرت بالسعادة ..

وحين خرج لنا الرجلان من الكهف لم أصدق أنهما بهذه البلاهة ، لقد دهنا وجهيهما بالطبشور متظاهرين بأنهما منا .. كدنا نفتك بهما لكن (لوسيفر) أمرنا ألا نفعل .. وقال بلهجة لا يمكن مناقشتها :

- « إن (هو) - الذى يمشى فى الظلال - لراغب فى رؤيتهما .. »

ثم اقتاد دودة (الاسكارس) إلى دارى ، وفتح بابها لا أعلم كيف .. ومكث معه بالداخل ساعة أو أكثر ..

ثم خرج من الدار بقامته المديدة ، ووقف أمام (الروح الكبرى) ليقول لها فى غطرسة :

- « هذان لن يموتا الآن .. بل موتًا يموتان حين يعود (هو) .. »

قالت له (الروح الكبرى) وهى تحنى قامتها المنهكة :

- « لكن أين نضعهما ؟ سيفرّان حتمًا ما لم يصيرا منّا .. »

أشار إلى دارى ، وتساءل :

- « دار من هذه ؟ »

- « دار (الدم) وامرأته (حدأة الصحراء) .. »

- « إذن هما سجينان فيها حتى يأتى (هو) .. »

ونظر لى - كيف عرف أننى (الدم) ؟ - وقال :

- « أنت لهما الحارس والعين والمضيف .. لو هربا أو أوذيا فلك مع (هو) - الذى يمشى فى الظلال - حساب أى حساب .. »

هززت رأسى مذعورًا :

- « كما تقول يا سيدى .. »

هنا كان الفجر قد دنا .. ساعتان تفصلاننا عنه ، ورائحته النقية تمزق رئاتنا بألف خنجر .. لذا صاحت (الأخت الكبرى) آمرة :

- « عودوا إلى دياركم يا أبناء (إنفرنوس) .. ناموا فى مملكة (خريولسن) حتى تموت شمس يوم جديد .. »

جررت الصحفى البدين من كمه ، فاستجاب لى فى رخاوة .. لقد ذهب عقله شعاعًا من هول ما رأى فى الكهف .. هذا واضح تمامًا ..

دخلت دارى ومعى ستة من إخواننا ..

وكان الأصلع النحيل جالسًا على المنضدة فى مدخل الدار ، وأمامه شمعة ذابلة لم يبق فيها سوى لهب يتراقص فى بركة من الشمع الساخن .. فما إن رآنا - وكان شارد الذهن - حتى رفع وجهه المرهق نحونا ، وقال فى هدوء المستسلم :

- « هذه إذن لجنة الاستقبال .. هل ستصفون دماءنا الآن ؟ إننى لن أشرب إكسيركم أبدًا .. سيكون عليكم قتلى من دونه .. »

وضحك ضحكة ساخرة جعلته يسعل ..

بالطبع لم يفهم أحد الواقفين حرفًا لأن الرجل تكلّم بالإنجليزية ، لكننى فهمت لأننى مدرّس .. وأقرأ بالإنجليزية أكثر مما أقرأ بلغتى الرومانية ..

لذا قلت له بلغة رديئة نطقًا ، صحيحة تركيبًا :

- « سيدى .. لن يكون هناك شىء من هذا .. إن هذه دارى أنا (الدم) .. وأنت ضيفى .. »

كما توقعت سألنى فى بلاهة :

- « اسمك (الدم) ؟! »

رددت بما وسعنى من تهذيب :

- « بعد تحولى .. نعم .. هذا هو اسمى .. أما اسمى القديم الآثم فهو (بيلاسكو) .. »

- « (بيلاسكو) .. » - ونظر للسقف كأنما يتذوق الاسم - « اسم مرعب بدوره .. ربما هو أكثر إرعابًا من اسم (الدم) .. »

انحنيت .. وقلت له التحية الرومانية التقليدية :

- « أهلاً بك فى دارى .. إليها تدخل حرًا ومنها ترحل سالمًا .. فقط بعد رحيلك اترك لنا بعضًا من السرور الذى جلبته معك .. »

ابتسم وهو ما زال جالسًا وقال :

- « ثق أننى سأترك أشياء كثيرة بعد رحيلى .. بقع دم وما إلى ذلك .. الآن هل ستربطنى بالحبال إلى المقعد ؟ »

- « سيدى .. إنك تخمن أفكارى قبل أن تخطر لى ! »

* * *

ربطناه والصحفى المعتوه إلى مقعدين ، ثم حملنا كل مقعد إلى القبو ..

طبعًا لم أكن راغبًا فى كل هذا .. لكننى لن أكون المسئول عن هروب هذين حينما يأتى (هو) ..

وجاءت (حدأة الصحراء) امرأتى الجديدة ، تدفع بطنها المنتفخ أمامها ، وتسألنى وهى ترمقهما مقيدين :

- « هل سنطعمهما ؟ »

- « بالطبع .. فهما غير مؤهلين لشرب الدماء بعد .. »

- « وأى شىء نطعمهما ؟ ليس لدينا سوى الفئران .. »

فكرت قليلاً .. ثم تذكرت أن لدينا بعض اللحم المجفف فى الكرار ، لم نأكله منذ بدأ التحول ، لذا طلبت منها أن تقدم بعضه لهما حتى لا يموتا جوعًا :

- « إن موتهما يتساوى عند (هو) مع فرارهما .. كلا الحالتين فرار من قبضته ، ولا أحب أن أنتظر لمعرفة مصيرنا وقتها .. »



ربطناه والصحفى المعتوه إلى مقعدين ، ثم حملنا كل مقعد إلى القبو ..

كانت تئن وتمسك ظهرها ..

شعرت بشىء كالشفقة يتحرك فى صدرى ، لكننى قمت بوأد هذا الشعور فورًا .. لقد تمّ تطهيرى من الوهن البشرى منذ زمن سحيق ، وصارت أشياء مثل الحبّ والعطف والرقة نوعًا من الإهانة لفكرة وجودنا ذاتها ..

كان النهار يدنو .. لذا دخلنا إلى غرفتنا التى أسدلنا ستائرها ، ولم تدخلها نسمة هواء منذ دهر ..

دخلنا إلى الفراش ، وغبنا فى نوم عميق ..

★ ★ ★

وحلمت .. حلمت بـ (هو) - الذى يمشى فى الظلال - قادمًا فى الغبشة .. ورأيت (حدأة الصحراء) تهرع كالملهوفة كى تسقط على قدميه هاتفة :

- « سيّدى وسيد سيّدى ! لقد أعددنا الأرض لقدومك .. »

عندها رأيته يفعل الشىء الذى توقعته ، ولم أجد فى حلقى صوتًا كى أنذرها منه .. رأيته يمدّ يدًا مخلبية ليعتصر رقبتها .. قال شىء فى قلبى : « هى امرأتك وواجبك إنقاذها » .. قال شىء فى عقلى : « لا .. إنما هى جاريته يفعل بها ما يشاء .. »

لكن (حدأة الصحراء) تصرخ .. تئن تتوسل إلىّ أن .....

آه آه .. آه ه !

★ ★ ★

وصحوت على الأنين ، فنهضت فى الظلام أرى ما هناك .. كانت تتشبث بالفراش وتعتصر الملاءات فى عنف ..

- « (بيلاسكو) .. يبدو أنه .. آى ! قادم ! »

انتظرت لحظة حتى عرفت الخط الفاصل ما بين نومى ويقظتى .. ثم هتفت مذعورًا وأنا أتراجع للوراء :

- « مستحيل يا (إليصابات) .. إن حملك لم يتجاوز ستة أشهر بعد .. »

ضغطت على أسنانها ، وقالت :

- « إنه أول طفل شاحب .. آى ! أى أنه ليس كالبشر .. آى ! هلم استدع (الروح الكبرى) حالاااان .. آى ! »

- « لا ! »

قلتها فى جنون ..

لقد ماتت (إيزبيا) على يدىّ (الروح الكبرى) ،

ومات وليدها .. فكل ما كانت العجوز تعرفه عن التوليد هو أن تجذب الوليد بأقصى قوتها ، وباستخدام مخالبها السوداء ...

كلا .. لن أسمح لها برؤية (إليصابات) ..

وهنا فطنت للمرة الأولى أننى استعملت اسمها القديم .. وهى كذلك استعملت اسمى القديم (بيلاسكو) .. غريب هذا !

لكنها تصرخ .. وصراخها كفيل بإيقاظ الموتى ..

لقد نسيت تمامًا هذه اللحظات .. ليلة ميلاد (كوثار) منذ ستة عشر عامًا .. كانت أمه تئن وكنت أنا أصرخ كالمجنون ، وجاء د. (ميخائيل) يلهث من داره ليساعدها على الولادة ..

ولكن .. من يساعدها الآن ؟ لا أحد من الشاحبين ، وصراخها يقول لى إن الأمر لن يكون سهلاً .. لن يتم تلقائيًا كما تمنيت ...

دودة (الاسكارس) فى القبو ؟ سمعت د. (لوسيفر) يناديه بلقب (دكتور) .. فهل هو طبيب أم .... ؟

هل أطلب عونه ؟ كيف أثق به ؟ الحقّ أنه - برغم قبحه - يبدو موحيًا بالثقة .. له عينان صافيتان

منهكتان ترمقان الكون فى أسى .. هل يسامحنى (هو) ؟ فليذهب (هو) إلى الجحيم إن لم يكن فيه .. إن أم طفلى فى مأزق ..

* * *

كان ضوء النهار يتسلل إلى القبو .. آلمنى جدًا لكنى تحاملت ودخلت .. ولشدة دهشتى كان الطبيب النحيل مستيقظًا .. قال لى بعينين حمراوين من فرط الإرهاق ، وهو مقيد إلى مقعده :

ـ « إن هذه الصرخات غير غريبة على سمعى .. إما أنها طريقة تعذيب جديدة خاصة بكم ، وإما أن هناك امرأة فى ولادة متعسرة .. »

قلت له وقد سرنى أنه استنتج بسرعة :

ـ « امرأتى تلد ويبدو أن الأمور ليست على ما يرام .. هل يمكنك مساعدتى ؟ »

ابتسم .. وسألنى أن أصلح وضع عويناته على أنفه ، ثم قال :

ـ « كنت أتمنى أن أتشفى فيك وأقول : دع (هو) يساعدها .. إلا أننى عاجز عن رفض علاج مصاصى

الدماء أنفسهم .. لكنى أنذرك .. أنا لم أر ولادة منذ عام ١٩٤٩ .. فأنا ـ لسوء حظك ـ طبيب باطنى .. »

ـ « هل يعنى هذا أنك ستؤذيها ؟ »

ضحك برغم إرهاقه ، وقال :

ـ « ما زلت أذكر الخطوط الأساسية .. ولن أحاول إخراج الطفل من إصبع قدمها ، لو كان هذا يثير قلقك .. »

لم يكن أمامى بدّ .. لذا فككت قيوده .. وأمرته أن يتبعنى إلى غرفة النوم .. إنها لمقامرة لكن ما باليد حيلة ..

* * *

ما إن دخل الحجرة حتى صار هو الآمر الناهى ..

ـ « افتح هذه الستائر اللعينة .. أريد بعض الضوء .. »

فعلت على مضض .. إن هذا سيؤلمها أكثر ، لكن هذا البشرى لا يملك الرؤية فى الظلام مثلنا .. فلنتحمل ..

ـ « هل لديك قفاز ؟ لا ؟ حسن سأجد حلًا ..

أريد سكينًا ورباطى حذاء أو قطعتين من حبل سميك .. »

ونزع سترته وربطة عنقه ، ورفع كمىّ قميصه .. سألته فى توتر :

ـ « هل أقوم بغلى بعض الماء ؟ »

ـ « لماذا ؟ »

ـ « كلهم يفعلون هذا .. »

ـ « دعك من هذا الهراء .. ستحرق نفسك أو تحرقها .. لقد دخلت كلية الطبّ فى بلادى كى أعرف لماذا يغلى الناس الماء وقت الولادة .. لكنى ـ بعد عشرين عامًا أو أكثر ـ لم أعرف السبب بعد .. »

وبدأ العمل وسط صراخ (أليصاباط) .. وشتائمها الرومانية للطبيب ..

★ ★ ★

كانت عملية قاسية مرهقة .. ولا بد أننى كنت أبكى بصوت مسموع بينما راح هو ـ ببطء شديد ـ يحاول تبديل وضع الجنين ..

استغرق الأمر نحو ساعة .. وهنا سمعت صوتًا

جديدًا يضاف لعواء المرأة .. كان هذا عواء رضيع .. ابنى !

ـ « حمدًا لله ! »

قلتها بصوت عال ، وقالتها زوجتى بالرومانية معى .. فنظر لى (رفعت) ـ كان هذا هو اسمه ـ فى دهشة .. كان الدم يغرق وجهه وقميصه وعويناته ، على حين راحت قطرات العرق تغسل هذا الدم ..

قلت فى إصرار :

ـ « نعم .. حمدًا لله ! »

غمغم وهو يهزّ رأسه :

ـ « حسبتكما لا تستطيعان لفظ هذه العبارة .. »

ثم رفع ذراعه اليمنى حاملاً قطعة اللحم المتسخة بدماء سوداء :

ـ « هو ذا ابنك .. شاحب ابن شاحب .. لك أن تفخر به .. لقد كدنا نفقده .. ويبدو أننى طبيب بارع حقًا .. لم أعرف هذا من قبل .. »

ورأيته يربط الحبل السُرّى على مسافتين متساويتين برباطى الحذاء ، ثم يقطع ما بينهما بالسكين ..

كانت الأم قد نامت حين رفع الوليد من على بطنها وناوله لى ثم راح يستكمل ما بدأه ..

تأملت الصغير الصارخ ، وأدركت أنه فى شحوب هذه الورقة .. له ملامح غريبة حقًا .. ملوث بدم أسود لا أحمر ..

ارتجفت هلعًا .. هذا – على قدر علمى – أول طفل يُولد ليمصّ الدماء من اللحظة الأولى .. ماذا سترضعه أمه ؟ أدماء ؟ أم هو لا يرضع أساسًا ، ولسوف يشاركنا حفلاتنا الصاخبة عما قريب ؟ يا للبشاعة !

كان (رفعت) قد فرغ من عمله ..

قال لى وهو يرتجف إرهاقًا :

– « هل .. هل لديك ماء ؟ »

ثم كاد يتهاوى على الأرض ، فهرعت أريحه إلى الجدار .. قال لاهثًا :

– « جيب البذلة .. الأقراص .. قرص تحت لسانى .. »

فعلت كما طلب وأخرجت قرصًا من العلبة التى كُتب عليها (نترات قصيرة المفعول) ، ودسسته تحت لسانه كما أوصانى ..

مرت دقائق ثم بدأ يستعيد قواه .. لقد كان قلبه معتلًا بشدة كما هو واضح .. وكانت الليلة الرهيبة التى بدأها بمصاصى الدماء وأنهاها بالتوليد أقوى من قدرته على التحمل .. (دودة اسكارس) مريضة تستجمع أنفاسها ..

وللمرة الثانية تحرك فى صدرى شعور الشفقة ..

* * *

- ٢ -

غسلت وجهه ويديه بالماء ، ثم عاونته على انتزاع قميصه الدامى ، وجلبت له قميصًا نظيفًا من حاجياتى .. فمنذ أن تمّ التحول وقمصانى لم تُمس لأننى لم أستبدل ثيابى قط ..

للمرة الأولى منذ أشهر لفظت الكلمة :

- « شكرًا .. »

قال وهو يرتجف بردًا وإرهاقًا وربما جوعًا :

- « أشكرك أنا أيضًا على إنقاذ حياتى .. »

واقتدته إلى القبو حيث كان صاحبه غافيًا على مقعده ..

- « د. (رفعت) ؟ »

- « هم م م ؟ »

- « سأثق بكلمتك .. هل تعدنى بشرفك ألا تحاول الهرب لو لم أقيدك ؟ »

نظر لى وابتسم .. وغمغم :

- « أعدك بشرفى لمدة ثمانى ساعات أنام فيها .. لكنى سأحاول الهرب بعدها .. ثق بهذا .. »

- « إذن أنت لم تترك لى خيارًا .. »

- « أظن هذا .. »

وفى طاعة جلس على مقعده ، على حين زحت أحكم ربطه بالحبال .. ثم تركته لألحق بزوجتى وابنى فى الغرفة المظلمة .. لقد بدأ النور يزعزع تركيزى إلى حدّ ما .. وأشعر بملايين الإبر تنغرس فى جلدى ..

ويبدو أننى نمت قبل أن أندس تحت الغطاء ..

* * *

كان الغروب دانيًا حين صحوت من النوم ، وجدت (حدأة ..) تلقم الرضيع ثديها وقد جلست فى الفراش .. سألتها ملهوفًا :

- « أترضعينه لبنًا حقًا ؟ »

- « لا أدرى .. يبدو مثله .. لكن لا تنس أننا لم نعد بشرًا ! »

تأملت المشهد بضع دقائق ، ثم تذكرت أسيرنا فى القبو .. فهرعت إليهما حاملاً قطعة من اللحم المجفف ..

كان الظلام دامسًا هناك لكنى كنت قادرًا على الرؤية بالطبع ، وبحثت عن شمعة أشعلها ..

كان الطبيب أفضل حالاً بعد النوم ، لكن القيد قد آلمه طبعًا ، وجعل عضلاته تتصلّب .. أما الآخر فمن الجلّى أنه تحولّ إلى نبات .. نبات لا يملك أفكارًا خاصة سوى أحلام غامضة ..

فككت قيد الرجلين وقدمت لهما الطعام ، ولم يكن الصحفى قد أبدى ما يدلّ على أنه يعرف معنى الأكل ، لذا دسست بعض الشرائح فى فمه دسًا .. وبعد ثوان بدأ يلوكها بالغريزة ..

أخيرًا سألنى (رفعت) وفمه ملىء بالزاد :

- « هل الرضيع بخير ؟ »

- « بخير .. »

- « أهو طبيعى ؟ أعنى ..... »

- « حتى هذه اللحظة يبدو كذلك .. ما عدا ملامحه الغريبة وشحوبه .. »

بعد ثوان قلت له وأنا أنظر للشمعة :

- « د. (رفعت) .. أنا راغب فى معاونتكما على الهرب .. فأنتما لا تستحقان الهلاك .. »

- « وأنت لا تستحق ما سيحلّ بك بعدها .. »

- « د. (رفعت) .. ألم تفهم بعد ؟ »

ورفعت الشمعة لتضىء وجهى المتسلخ .. وأردفت :

- « نحن لم نعد بشرًا يستحقون ولا يستحقون .. نحن مسوخ يجب تدميرها ..

لقد عرفت هذا حين رأيت الرضيع أمس .. لا أعرف كنه (هو) هذا .. لكن قبضته على روحى قد بدأت تتراخى .. وإننى لألعنه .. »

* * *

وفى الساعة التالية حكيت للطبيب القصة من بدايتها .. الوباء الذى عادت به (ناديا) من الكهف لتنشره بيننا .. كل شىء .. إلى لحظة دخولهما دارى ..

سألنى وقد صار يعرف ما أعرفه ..

- « أنت كنت مدرسًا مثقفًا إذن ؟ »

- « بالتأكيد .. ومتدينًا كذلك »

« لهذا كان تأثير دماء (دراكيولا) عليك ضعيفًا .. كما أن التنويم المغناطيسى لا يؤثر فى أقوياء الشخصية .. إن روحك لم تفسد بعد .. »



ورفعت الشمعة لتضىء وجهى المتسلخ .. وأردفت :
ـ «نحن لم نعد بشراً يستحقون ولا يستحقون» ..

ثم سألنى وهو ينظر فى عينى :

ـ « أين يوجد دمه الخطر هذا ؟ »

ـ « من المصادفة أنهم تركوه عندى .. لأننى أعرف كيف تحفظ هذه الأشياء .. »

ـ « هل لى أن أراه ؟ »

مددت يدى إلى جيب داخلى فى سترتى الصوفية ، وأخرجت الأنبوب الصغير .. الأنبوب الذى عادت به (ناديا هالماسكيا) ـ أخت الذئاب كما نسميها الآن ـ من (جانب النجوم) ، وعرضته على الطبيب الناحل ..

قال وهو يتأمله بين أنامله :

ـ « هذا مخيب للأمل .. كنت أحسبك ستجلب قارورة فاخرة الشكل مفعمة بالدماء ، فإذا بأنبوب اختبار ملىء بمسحوق .. بمادة كالفلفل الأسود .. »

ـ « هو كذلك .. يبدو أنهم يجففونه هناك .. نحن نخلط مقدار جرام واحد بمقدار أربعة جرامات من الـ (وولف بين) .. و ... »

قاطعنى مبتسماً فى خبث :

ـ « كخطوة أولى .. هل لديك فلفل أسود ها هنا ؟ »

- « أظن هذا .. لكن هل تنوى ؟! »

- « إن الإغراء أقوى منى .. على الأقل سيعجز هؤلاء القوم عن ضمّ آخرين مهما شربوا من دماء .. إن أفضل خدمة تقدمها لإنسان هى أن تسمح له بالموت دون أن يشرب هذا الإكسير اللعين .. »

ارتجفت يدى .. وفكرت لحظة فى منعه .. فقال :

- « (بيلاسكو) .. أأنت عدوى أم صديقى ؟ هل تريد إنهاء الكابوس أم إحياءه ؟ لا يوجد حلّ وسط .. ولا وجود للون الرمادى .. »

ثم ناولنى الأنبوب ، وهو ينظر فى عينى بثبات :

- « يمكن الخلاص منه فى المرحاض لو كان عندكم واحد .. »

- سأفعل .. »

- « ثم املأ الأنبوب بالفلفل الأسود .. لن يلاحظ أحدهم الأمر إلا فيما بعد .. »

- « حسن .. »

وحملت الأنبوب فى الظلام ، شاعرًا بأنه يرتجف فى يدى .. فلو كان ما أحمله ثعبان جرس لكنت مطمئنًا أكثر ..

وفى الحمام فتحت سدادة الأنبوبة وأخذت شهيقًا عميقًا .. ثم أفرغت المسحوق الأسود فى المرحاض ، دقائق كاملة وقفت فيها أرمقه وهو ينتشر على سطح الماء .. وأدركت - فى رهبة - أن الماء يصطبغ باللون الأحمر القانى ..

ضغطت على زرّ الطرد كى لا أرى أكثر .. وهدر الماء ..

هدر حاملاً دماء (دراكيولا) إلى ما تحت الأرض ...

* * *

عدت إلى (رفعت) فى القبو ، ورفعت الأنبوب الملىء بالفلفل الأسود بين سبابتىّ والإبهام .. وقلت بصوت متحشرج :

- « قد تمّ كل شىء .. »

- « أحسنت .. »

ثم نظر إلى ساعته ، وقال :

- « أرى أن تقيدنا وتخرج لهم كى لا يشكّ أحد فى شىء .. هذا ميعاد خروجكم للاحتفال .. »

فعلت كما طلب ، ثم غادرت الدار مبلبل الأفكار ..

كان علىّ أن أخبرهم بميلاد ابنى ، وأن أتركه لهم كى يجعلوه منهم بصورة نهائية ..

كنت ـ كما قلت ـ مبلبل الفكر ، ولهذا لم أنظر تحت قدمىّ ..

وبالتأكيد فاتنى أن أرى ما يحدث فى البئر الذى تصب فيه ماسورة مجارى بيتى ..

* * *

- ٣ -

وقفتْ قرب النار المضطرمة التى أشعلوها هذه الليلة فى عربة قديمة ، كانت الخيول تنقل التبن بها ، وكانوا جميعًا هناك ينتظرون بدء الحفل لهذه الليلة ..

والضحية فتاة من القرية جاء بها (بوريس) إلينا .. من الواضح أنها كانت معجبة به ، والإعجاب جعلها تصدقه ..

الآن تقف ذاهلة لا تجد الكلمات ، وهى ترى كل هذا الصخب وكل هذه المسوخ .. وتشعر بأن شيئًا ما كريهًا يُراد بها لكنها لا تعرف ما هو ..

لم تكن قادرة على الفرار .. فقد ربط (بوريس) حبلاً إلى عنقها ، وربط طرفه الآخر إلى عمود الإنارة الذى انتزعنا مصباحه من زمن ..

لكنهم لم يبدءوا الاستنزاف بعد ...

قال لى (الكابوس) وهو يرفع قارورة الإكسير :

ـ « هات بعضًا من المسحوق يا (دم) .. »

نظرت له ، وابتلعت ريقى .. كان يجب أن أكون طبيعيًا .. ومددت يدى فى جيب سترتى وأخرجت

الأنبوب ، وبطرفى إصبعى تناولت ما قدرت أنه جرام من المادة ونقلته إلى القارورة ، ثم رحت أرجَ الخليط بضع مرات ..

قرّبوا فوهة القارورة من ثغر الفتاة ، فتراجعت مجفلة . وصاحت :

ـ « أنتم لن تؤذونى ! فقط قولوا هذا ! »

لكن أحدًا لم يكن يملك نية للكذب ..

ودون جهد كثير لامست الفوهة شفتيها ، فجرعت جرعتين وهى ترتجف هلعًا .. سعلت مرتين ثم هدأت ..

ورأيت (بوريس) يربط قدميها بالحبل توطئة لرفعها .. فصحت محاولاً تعطيلهم بعض الوقت :

ـ « يا إخوان .. قد أنجبت (حدأة الصحراء) طفلاً ذكرًا أمس ! »

تعالى صياحهم ، وسمعت أكثر من واحد يقول أشياء على غرار (كيف لم تخبرنا ؟) (إنه لخبر مبارك !) .. إلخ ..

هنا صاحت (الروح الكبرى) بصوتها الغرابى ..

ـ « هو أول طفل شاحب يأتى للأرض ! طفل لـ (هو) (الذى يمشى فى الظلال) منذ أول لحظة فى حياته .. ولكن لِمَ لم تنادنى وقت الولادة ؟ »

كى لا تقتلى زوجتى أيتها الساحرة الشمطاء !

تمنيت أن أقولها لكنى لم أفعل .. وقلت فى حياء :

ـ « تمّ الأمر بسرعة لم أصدقها .. »

ـ « إذن هات الوليد كى نبدأ طقوسنا ! »

ارتجفت لتصورّ ما سيحدث .. نحن لم نر مشهدًا مماثلاً لكن يمكن تصوره دون جهد .. لا بد أن كتاب (إنفرنوس) الذى تحمله المرأة تحت إبطها يحوى العجب العجاب ..

ترددت برهة ، وغمغمت شيئًا لا أعرف أنا نفسى ما هو ..

قالت لى مستحثة :

ـ « هلم يا (دم) .. هات الطفل .. هات (الشاحب) .. هنا هو اسمه .. »

غلى الدم فى عروقى ـ لو كان فيها دمٌ بعد ـ على الوضع المزرى الذى صار معه الأب عاجزًا عن تسميته ابنه .. بل ولا يجرؤ على منع من يرغبون فى إيذائه من عمل ذلك ..

هنا سمعت صوتًا بربريًا قوى النبرة يقول :

ـ « أعتقد ـ وهو اعتقاد له ما يبرره ـ أن الأخ

غير سعيد وغير راض .. وأنه ليصطنع اللطف اصطناعًا ! »

نظرنا لنرى من هو ..

كان د. (لوسيفر) واقفًا .. كتلة من اللون الأسود الشرير .. لا تعرف أبدًا متى جاء هذا الرجل ومن أين ؟ لكنه يظهر فجأة وراء ظهرك ..

لقد كان هناك ، وكانت عيناه السوداوان الثابتتان الخاليتان من التعبير تتفحصانى فى اهتمام ..

إنه يعرف ! بحق السماء .. هذا الرجل يعرف كل شىء ..

قلت محاولاً أن أبدو طبيعيًا :

ـ « لا شىء يدعونى إلى أن أكون غير سعيد يا سيدى ، وقد صرت أبًا للمرة الثانية منذ ساعات .. »

عاد يسألنى بنفس النبرات الثابتة :

ـ « وكيف حال ضيفيك ؟ »

ـ « بخير حال .. وهما مقيدان كشاتين قبل الذبح .. »

ـ « إذن هلم ! هات الطفل .. وبرؤيته تنعم عيوننا .. »

فارقتهم عائدًا إلى دارى وأنا أشعر بنظرات الشك فى عيونهم تكاد أن تخرق ظهرى .. لقد صارت أيامى هنا قصيرة حقًا ..

وإذ مددت يدى إلى مقبض الباب ، سمعت صرخة الفتاة الشنيعة ، فعرفت أنهم بدءوا حفلهم .. وأنها تواجه الآن ما لاقاه (أنطونسكو) ابن القصّاب أمس ..

الشنيع هنا أن (أنطونسكو) كان من الواقفين حولها الآن ، وهى تتدلى كالوطواط من قدميها المربوطتين إلى الشجرة !

★ ★ ★

نزلت إلى القبو ..

كان (رفعت) يتأمل صديقه فى قلق .. وبرغم الظلام كان بعض الضوء يأتى من الخارج ، حيث راح اللهب يضطرم ، أدركت أن الصحفىِ البدين لم يتحسن قط .. ما زال يرمق الفراغ مذهولاً وقد تدلت شفته السفلى ، وسال منها خيط لعاب إلى صدره ...

فما إن رآنى (رفعت) حتى سألنى :

ـ « لم عدت ؟ »

قلت وأنا أفك قيوده بسكينى :

ـ « إن ذلك الغامض المدعو (لوسيفر) يرتاب فى أمرى .. »

عض شفته السفلى فى أسى ، وقال :

ـ « لم يخطر هذا ببالى .. إن الرجل يقرأ الأفكار فحاذر منه .. »

ـ « لم يعد ثمة وقت كاف للحذر .. عليك أن تفرّ من هنا .. »

ـ « لن يكون دون صاحبى .. »

ساعدته على النهوض وهو يثب كاللقلق من تصلب عضلاته ، وأعنته حتى دنا من النافذة الخاصة بالقبو ، وهى نافذة يقع نصفها السفلى تحت الأرض ، أما نصفها العلوى ففى مستوى الشارع ..

وعلى ضوء اللهب أشرت إلى دار على بعد مائة متر ..

ـ « هل ترى هذه الدار ذات الباب الأحمر ؟ »

هزّ رأسه أن نعم ، وهو ينتظر ما سأقول ..

ـ هذه دار (الروح الكبرى) .. »

ـ « أعرف هذا .. لقد قرعنا بابها مرة .. »

ـ « إن للقبو فيها نافذة تشبه هذه .. كل ما عليك هو تهشيم الزجاج بحذر ، فالهبوط إلى القبو .. »

ـ « شىء جميل .. لكنى لا أعرف ما الممتع فى هذا ؟ »

ـ « هناك فى القبو ستة صناديق .. وهى ملأى بالديناميت كلها .. »

عاد يواصل أسئلته الغبية .. (أنا أمقت كثرة أسئلة هذا الرجل) :

ـ « ولماذا تحفظ عجوز شمطاء مثلها بالديناميت ؟ إنه لا يصلح لصنع الحساء على قدر علمى .. »

صحت فيه غاضبًا ، وقد نفد صبرى :

ـ لا وقت للمزاح ؟ كان هذا (الديناميت) لدى فريق من عمال المناجم مرّوا بالقرية منذ شهرين ، وقد قتلناهم جميعًا .. لكننا نقلنا الصناديق إلى دار (الروح الكبرى) لأننا افترضنا أن (هو) سيرغب فى اقتنائها حين يجىء .. والآن سأشرح لك : ستقوم أنت بالتسلل إلى القبو ، وتملأ جيوبك بأصابع الديناميت .. ثم تهرع إلى الكهف ، وتبدأ فى غرسها عند المدخل .. ومن ثمّ تفجّر باب الجحيم هذا .. ستعيد إغلاق فتحة (جانب النجوم) وتفرّ إلى الجانب الآخر من القرية .. وحين تعود لا تعد وحدك .. »

قال وهو يشعر بخطر الموقف :

ـ « ومن الأحمق الذى سيتركنى أفعل كل هذا ؟ »

ـ « سأشغلهم عنك .. وثق أن كثيرًا من الضجيج سيحدث مما يمنحك نصف ساعة تعمل فيها بأمان .. »

ـ « وكيف أفجر الديناميت ؟ بقداحتى ؟ »

ـ « يوجد جهاز تفجير .. ومجموعة من الأسلاك .. لا أدرى ما إذا كنت تجيد عمل هذا لكنى أنصحك أن تجيده .. »

سألنى كطفل ينوى القيام بعمل مبهر للمرة الأولى فى حياته :

ـ « جهاز تفجير من الذى نراه فى السينما ؟ أعنى علبة معدنية فوقها ما يشبه الكبّاس ؟ »

ـ « أنت رجل ذكى .. المفترض أن يغلق هذا الكبّاس دائرة كهربية ترسل شرارة إشعال فى الديناميت .. »

هنا سمعنا الطرقات العنيفة على بابى ..

ـ « افتح الباب يا (دم) ! »

كانت طرقات غير مرحبة وغير ودود .. طرقات تتهمنى بالخيانة .. من الواضح أنهم وجدوا الفتاة قد ماتت بعد استنزافها ، وعرفوا كل شىء ..

صحت فى (رفعت) وأنا أرفع مصراع النافذة لأعلى :

ـ « هلمّ ! اخرج حالاً ! »

حشر جسده النحيل معدوم اللياقة فى الفتحة ، وتساءل محتجًا :

ـ « ولكن .. ماذا عن .... ؟ »

ـ « أسرع يا أحمق ! »

ودفعته دفعًا إلى خارج النافذة ، بينما الطرقات تتعالى أكثر :

ـ « افتح يا (دم) ! لقد اكتشفنا خيانتك ! »

أغلقت مصراع النافذة ، وهرعت ركضًا أغادر القبو ..

دخلت غرفة النوم حيث كانت (إليصابات) جالسة فى الظلام تحتضن ابننا ، وقد اتسعت عيناها هلعًا .. ومرتجفة سألتنى :

ـ « ماذا يريدون ؟ »

قلت وأنا أخرج بندقيتى من الخزانة ، وأحشوها بالخراطيش :

ـ « يريدون الانتقام ! »

ـ « لماذا ؟ ماذا اقترفت ؟ »

تأكدت من أن البندقية محشوة ، فأغلقتها .. وثبتَ قاعدتها إلى كتفي واتخذت وضع الرماية .. قائلاً :

ـ « اقترفت كل ما يعتبره مصاصو الدماء إلحادًا .. ويتعبره البشر عملاً خيّرًا .. لكن دعيني أؤكد لك ... »

واتجهت نحو الباب وأنا أسمع الطرقات توشك على اقتلاع الباب :

ـ « لن يأخذوني بسهولة ! »

* * *

حكاية الطبيب النحيل

يحكيها هو نفسه

- ١ -

قال (رفعت) :

كانت (إنفرنوس) كلها على باب (بيلاسكو) الآن ، فلم يرنى أحد وأنا أغادر الدار واتجه إلى البيت المقصود .

★ ★ ★

لم تكن المهمة عسيرة ، وبرغم الظلام كان الضوء القادم من الشارع كافيًا كى أجد الصناديق المذكورة .. صحيح أننى جرحت يدى فى أثناء الدخول وتهشيم النافذة ، برغم أننى هشمتها بحجر .. وصحيح أننى تلقيت عضة فأر فى اليد ذاتها وأنا أحاول فتح أحد الصناديق ، صحيح أن كل هذا حدث .. لكن الأمر كان سهلاً للغاية ، فالأيدى الجريحة يمكن تضميدها دائمًا .. وهناك مصل (كلب) فى مستشفيات (بوكوفينا) دائمًا ..

المهم الآن أن ....

صوت الهياج يزداد وأنا أدسّ الأصابع الرهيبة فى جيبى .. ثمانية أصابع .. لا بد أنها كافية ..

صوت صراخ .. تحطيم خشب .. لا بد أنهم اقتحموا الباب الآن ..

وجدت جهاز التفجير ولفة من الأسلاك جواره ، فرفعته .. إنه ثقيل حقًا لكن منظره يذكرنى بـ (كوريك) السيارة أكثر منه بعلبة معدنية ..

ولم أنس أن ألفّ الأسلاك حول ذراعى ..

واتجهت إلى .. آه يا قلبى ! لاتتخاذل الآن ..

مسكين أنت ! طالبتك بالكثير وما زال أمامك ما هو أكثر .. إننى أعتمد عليك .. أنت لم تتخلّ عنىّ منذ عام ١٩٢٤ .. فلا تفعلها الآن !

اتجهت إلى .. النافذة ...

ونجحت ـ لا أدرى كيف ـ فى مغادرة الفتحة ..

وللحظات استلقيت على أرض الشارع الحجرية ألهث .. وأصغى إلى صوت طلقات النار من بعيد ..

يبدو أن (بيلاسكو) لم يكن سهل الهضم كما ظننت ..

★ ★ ★

راكضًا رحت أتجه إلى الكهف اللعين ..

نظرت للوراء فوجدت جثة الفتاة المعلقة من قدميها إلى الشجرة ، كأنها فى كابوس حىّ .. لكنها ـ على الأقل ـ قد استراحت للأبد ..

تحاشيت النظر إليها ، ورحت أتأمل الكهف ..

كفم الموت الفاغر ينتظرنى فى شوق ..
ينتظرنى وأنا أتجه إليه .. انظر للوراء فى

(لقد توقفت الطلقات .. أتراهم فرغوا منه !)

توجس .. لو جاءوا الآن فلن يكون لهذه المغامرة معنى .. (جوستاف) البائس .. هل قتلوه ؟ ربما آثروا تركه حتى يجيء (هو) لو كان له أن يجيء ..

ترى ما هو عقاب الشخص الذى يبذد أقدس نفائس هذا المجتمع ، ويستبدل بها عدة جرامات من الفلفل ؟ لن يضربوه بالعصا على أطراف أنامله طبعًا ، أو يقولوا له (يا وحش) ! لكنى غير قادر على تخيل ما سيحدث ...

هو ذا الكشاف حيث تركته فى تلك الليلة ـ أمس ! ـ حين خرجت لهم مع (جوستاف) متظاهرًا بالشحوب ..

★ ★ ★

« إن ضوء هذا الكشاف لا ينتهى إلا عندما ينتهى ! »

★ ★ ★

لم ينته بعد لحسن الحظ .. ما زال يسمح لى ببضع دقائق .. على كل حال فتحته وأخرجت الحجر الجاف لأدسه بين أسنانى ، وأعضه عضة مؤلمة ـ لى أنا طبعًا ـ تمنحه مزيدًا من العمر القصير ..



نظرت للوراء فوجدت جثة الفتاة المعلقة من قدميها إلى الشجرة ، كأنها فى كابوس حىّ .. لكنها ـ على الأقل ـ قد استراحت للأبد . . .

ثم أعدته إلى الكشاف .. حسن .. الإضاءة أحسن نوعًا ..

دخلت الكهف .. مترين أو ثلاثة أمتار .. ثم رحت أفرغ جيوبى مما بها من نفائس .. ليس الديناميت مما يرهبنى الآن .. فقد فجرته مرتين من قبل حين واجهت (العساس) ..

★ ★ ★

ثم انبطحى ! لا تنسى يا سيدتى أن تنبطحى !

★ ★ ★

بدأت أغرسه كيفما اتفق فى الجدران .. أنخر الحجارة الهشة بأظفارى ثم ثبتت كل إصبع فى الفتحة ..

الآن يبقى دور الـ ....

لحظة ! يبدو أن هذه ليست الطريقة المثلى .. فى السينما يفجرون حزمة كاملة من هذه الأصابع ملفوفة بالسلك .. وهكذا قررت أن انتزع كل ما وضعته ، وعدت أكومه فى حزمة واحدة .. ثم عرّيت طرفًا من السلك ، رحت أواصل ما بدا لى هو الحلّ الصائب الوحيد ..

وأحكمت تثبيت حزمة الديناميت فى الجدار ..

ثم مددت السلك إلى الخارج مسافة كافية .. أخيرًا وجدت صخرة يمكن أن أتوارى وراءها ، فجذبت السلك ، وقمت بربطه بجهاز التفجير مستعملاً أظفارى (كانت موضة إطالة ظفر الإصبع الصغير لليد شائعة وقتها ، وبرغم أنها عادة غير متحضرة فإننى كنت ممن يزاولونها للأسف) ..

هكذا أنا جاهز ويدى على (كبّاس) جهاز التفجير .. هكذا يمكننى البدء ..

لكن ما رأيته جعلنى أصاب بشلل لحظى ..

★ ★ ★

- ٢ -

لقد كان (بيلاسكو) صادقًا ، حتى إن شككت فى ذلك لحظة ..

لقد سكب دماء (دراكيولا) فى المرحاض حقًا ...

★ ★ ★

كان الصخب عاتيًا ، ولسان من البرق شقّ عنان السماء ليضرب الكهف فيتألق بذلك اللون (الإستاتيكى) البارد الرهيب ..

واهتزت الأرض مرات ومرات ، ثم رأيت الشىء الذى قال لى صدق (بيلاسكو) ..

فمن أكثر من عشرين موضعًا فى ساحة القرية البعيدة ، وفى عدة مواضع حول الكهف .. رأيت الأرض تتفجر لتخرج منها نافورات من الدم الأحمر القانى ، يثور ويرغى غاضبًا محنقًا ..

إن الأمر مفهوم .. هذه هى الدماء ، وقد سرتْ فى شبكة المجارى تحت القرية .. ثورة الغضب الأخيرة لكائن شيطانى حرمه الرحمن من إفساد عالمنا ..

رحت أردد المعوذتين ، وأرتجف .. أسنانى تصطك هلعًا ..

ولمحت الدماء تتسرب ببطء إلى داخل الكهف .. بركة صغيرة تحتشد ببطء هناك .. ما معنى هذا وما مغزاه ؟

غلبنى الفضول فنهضت ..

ركضت إلى مدخل الكهف محاذرًا أن أدوس فى السائل المخيف ..

لحسن الحظ أنه يتدفق من الجانب تاركًا لى المجال كى أجد مكانًا لخطواتى ..

نظرت إلى الداخل فوجدت هولاً ..

لقد كان الضباب الأحمر يتزايد .. الضباب الذى رأيته حين فتحت الباب مع (جوستاف) أمس ..

كان هناك صوت خوار قوىّ ..

واستطعت أن أرى جسدًا يتحرك .. جسدًا عملاقًا يرتمى ظله على الضباب .. كان آتيًا من قلب الكهف .. من المقبرة وباب (جانب النجوم) .. وكان يخور كالثيران ..

إنه (هو) .. (فلاد) .. (دراكيولا) .. (نوسفيراتو) !

لقد اجتاز الفتحة إلى عالمنا !

وهرعت راكضًا إلى مخبئى شاعرًا بأنها الساعة ..
فؤادى لا يكف عن الوثب .. لا يكف عن ..
لا بد أننى غبت عن الوعى بضع دقائق من فرط الانفعال العاطفى ..
و .... الظلام ... الظلام ...

* * *

وحين فتحت عينى رأيت المشهد وقد صار مزدحمًا إلى حدٍ لا يمكن وصفه .. وعلى ضوء البرق اللحظى كنت أرى تفاصيله بدقة ..
لقد جاء كل أهالى (إنفرنوس) ، واحتشدوا عند مدخل الكهف ..
لو أنك رأيت المشهد لأرحتنى من عناء وصفه .. لكننى سأحاول .. سأحاول أن أصف البرق ، والظلام ونافورات الدم ، والضباب الأحمر المنبعث من المدخل .. سأحاول أن أصف القوم وهم يصرخون فى لهفة .. فى نشوة .. وينحنون غير مصدقين .. سأحاول أن أصف رائحتهم الكريهة التى امتزجت برائحة البرق ورائحة (الأوزون) إن كانت للأخير رائحة ..

وأخيرًا فهمت أكثر ما حدث ...
إن العلامة التى ينتظرها (هو) كى يجتاز الثغرة ، هى أن ترتوى أرض الكهف بدمائه .. وهو ما حدث نتيجة لقيام (بيلاسكو) برمى الدماء فى شبكة المجارى ..
صحيح أن (هالماجيو) لم تصر كلها للشاحبين .. وهذا معناه أن الأخ (فلاد) قد تلقى دعوة سابقة لأوانها ؛ لكن هذا لا ينفى حقيقة أنه اجتاز الفتحة أو يجتازها الآن ...
ورأيت المسوخ المخبولة تدخل الكهف ، وهم يرددون الكلمة الوحيدة التى أعرفها ـ للأسف ـ من اللغة الرومانية كلها :
ـ « فامفيرى ! فامفيرى ! »
كلهم يدخل حتى الشيوخ منهم والنساء .
كلهم يدخل الكهف ليكون باستقبال (هو الذى يمشى فى الظلال) ..

* * *

ولم يكن أمامى حلٌ آخر .. صدقونى ...
فقط امتدت يدى إلى (الكبّاس) ، ودعوت الله ـ رب العرش العظيم ـ أن يكون فهمى للدوائر الكهربية

صحيحًا ، وأن يكون الديناميت صالحًا ، وأن يكون موقعه ملائمًا ، وأن يكون بوسعى أنا الكهل الواهن أن أنهى هذا الكابوس ..

هوب ! لم يحدث شىء ...

هوب ! لا شىء ...

أترى من المفترض أن أضغط على هذه الأداة مرارًا كمنفاخ الدراجة الهوائية ؟ أم ...... ؟

لكن الانفجار جعلنى لا أتساءل أكثر ...

* * *

استحال الليل نهارًا ، واهتزت الأرض تحت قدمى ، وتطاير الغبار فى كل مكان ..

بصعوبة صدقت أننى مصدر هذه الفوضى ..

وخيل إلىّ أن الدوىّ استمر قرونًا .. لكنه حين هدأ أخيرًا ، كان بوسعى أن أرى مدخل الكهف وقد تحول إلى جبل من الصخور ..

و ـ كأنما لتغسل كل هذه الآثام ـ انهمرت الأمطار مدرارًا ...

* * *

ها ها ها ها ها ه !

دوت الضحكة العالية لكنها لم تكن لى .. استدرت إلى الوراء فرأيته واقفًا تحت الأمطار فى وقار كأنما لا يعبأ بها ولا تعبأ به .

نزعت عويناتى التى جعلها الماء لا تصلح لشىء ..

كان الصيّب ينهمر على صلعتى ، ويبلل ثيابى إلى ما تحت جلدى .. لكنى تقدمت نحوه وأنا أشهق طالبًا الهواء ..

د.(لوسفير) ينتظرنى ويداه فى جيبى صديرى بذلته السوداء ..

قلت له والماء يسيل من حاجبىّ كالشلال :

ـ « والآن تعال نصفّ حسابنا أيها الوغد .. أرنى ما ستفعله ! »

واتخذت وضع ملاكمة عظيمًا جدًا ، واتجهت نحوه ، وقبضتى اليمنى تتقدمنى .. إن لكمتى الخطافية سوف ..

ـ « كف عن هذا السخف ! »

قالها ودفعنى للوراء بسبابته ، فطرت مترًا أو أكثر لأسقط فى الأوحال .. لن أستطيع أن أفعل ما يفعله الآخرون أبدًا ...

قال لى وهو يتأملنى وأنا على الأرض :

- « لقد هدمت الكهف على رءوسهم يا د. (رفعت) .. وأغلقت باب (جانب النجوم) فى اللحظة التى كان (فلاد) يتأهب فيها للعبور .. لعبة موفقة حقًا .. »

- « لكنه عبر بالفعل .. لقد رأيته ! »

- « كان هذا باوره .. وقد جاء يستكشف الأمور قبل قدوم سيده .. »

ثم أردف والمطر يزداد كثافة :

- « الحق أقول إننى كنت أعرف هذا من اللحظة الأولى .. وعرفت أنك ستفجر الكهف .. لكنى - لك أن تصدق - تركت الأمور تمضى كى أستمتع برؤية صراعك المحموم .. »

سألته وأنا أنهض مهشم العظام :

- « ولماذا ؟ »

- « لأن الحمقى من أمثالك هم ما يجعل للحياة طعمًا .. إن (المانوية) تقول إن الشرّ ضرورى للكون كالخير .. ولولا الشرّ ما وُجد الخير .. إن الحياة لا تستقيم إلا بوجود مصاصي الدماء وقتلة مصاصى الدماء مثلك .. لهذا تركتك حيًا لأن جولات كثيرة تنتظرنا معًا .. جولات أكثر إمتاعًا من هذه .. »

- « تريد القول إنك ستتركنى حيًا الآن ؟ »

- « حقًا أقول .. »

- « وبمنطق القط (توم) الذى لا يلتهم الفأر (جيرى) حتى لا تصير الحياة مملة كالجحيم ؟ »

- « بالمنطق ذاته .. »

نظرت للسماء التى ما زالت تسخو بأمطارها .. وقلت :

- « وماذا عن (فلاد) ؟ »

- « سيبحث عن ثغرة أخرى يعبر من خلالها .. ولسوف ينجح حتمًا .. ويومها ستكون أنت أول رأس يقطعه .. فهو يعلم الآن من أغلق بوابته ! »

حاولت سُدى تجفيف صلعتى من الماء ، وسألته :

- « وماذا عن (جوستاف) ؟ »

- « حىّ يرزق .. ستجده فى القبو حيث هو .. لكن لا تصعد للطابق العلوى لأن المشهد ليس محببًا .. »

- « رباه ! »

واستدرت مبتعدًا متجهًا إلى دار (بيلاسكو) ، حين سمعت (لوسيفر) يناديني من وراء ظهرى .. فسألته دون أن ألتفت :

- « هل هناك جديد ؟ »

قال بصوته البيرى واثق النبرات عميقها :

- « حافظ على صحتك .. حاول ألا تموت قبل لقائنا التالى .. »

- « سأحاول .. لكنى لا أعدك بشىء .. »

* * *

سيكون علىّ أن أحكى كل هذا للسلطات الرومانية المتشككة ..

سيكون علىّ أن أطمئن على أن (جوستاف) قد شُفى من الصدمة العصبية ..

سيكون علىّ أن أضمد جراح يدى ، وآخذ حقن (الكلب) إياها ..

سيكون علىّ أن أتحاشى الإصابة بالتهاب رئوى بعد كل هذا البلل ..

سيكون علىّ أن أحاول النسيان ، كى أستطيع النوم من جديد ..

* * *

كل هذا ممكن ..

أحتاج إلى وقت لكنه ممكن ...

وكان علىّ أن أشفى سريعًا من جراحى النفسية والمعنوية ، كى أواجه فصيلة النازيين التى لم تمت بعد ، والتى تجوب القرى ليلاً تنشر الخراب والذعر ..

لكن هذه قصة أخرى ..

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

* * *